سلسلة أوراق من التاريخ

٧

المنسيّون في التّاريخ

شاكر مصطفى



ريع الدار
لهيئة مدارس أبناء وبنات الشهداء في الجمهورية العربية السورية



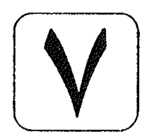
دمشق أوتوستراد المزة ص.ب: ١٦٠٣٥ ـ برقياً طلاسدار

هاتف: ٦٦١٨٩٦١ـ٦٦١٨٠١٣ تلفاكس: ٦٦١٨٨٢٠ تلكس: ٤١٢٠٥٠

المنسيّون
في التاريخ

الطبعة الأولى ١٩٩٦

سلسلة أوراق من التاريخ





شاكر مصطفى

كلمة

قال صاحبه :

ـــ إنس . النسيان يطفئ اللهيب . النار التي تظل موقدة تأكل ما حولها . فحذار !

وقال لصاحبه :

ـــ ماذا أنسى؟ زنجية آلامي . وقلبي صخرة . فحمة . فراغ رهيب . أنا هامة الأمس أنا منسي هنا . منسي على الأبعاد . منسي حتى الموت . أنا النسيان نفسه . الغبار الدهري يفترسني كتنين الأساطير . فانطلق وحدك . في قدميك جناحا هرمز ، فطر بهما قبل أنشودة المطر والظلام . وقبل أن تلتمع الجمجمة كالشهاب !

ـــ وأنت ؟ كيف أتخلى عنك وليست لك قدمان ؟

ـــ انطلق . لا عليك . أنا الأبد !

شاكر



كلمة أولى

... حتى ولو كنت من المؤرخين فهل تعرف التاريخ حقاً؟ هل يحوى كل شيء ويكفي أن تفتح الدفتين؟ أخشى أن أخيب ظنك إن اعترفت أنه كالبحر المحيط يتدبرون له السفن وثياب الغوص والأنوار الكاشفة والمراقبين والعلماء ثم لا يحظون منه إلّا ببعض الصور لمخلوقاته العجيبة ... كل هذا وهو يهدر بجلاله وامتداده اللا نهائي ... وأسراره. إن فيه من الطحلب إلى الحيتان وفيه الكنوز الهائلة وملايين الملايين من أطنان الأقذار ولكنه يغطي على ذلك بسطح رجراج من الجلد لا تكاد تمسك منه في شيء ... سوى ما على السطح من لون الزمرد أو لون اللازورد أو لون الدماء ...

أنت وأنا لا نعرف إلّا أقل بكثير جداً من القليل. مَنْ حَظِيَ — بمجرد المصادفة المحضة — بأن يذكر في التاريخ افترش مكاناً منه واسعاً أو ضيقاً حسب ما يقدر له. وأما الآخرون وفيهم كبار ومبتكرون ومجرمون ومغامرون وملوك ومن كل زوج بهيج أو غير بهيج فغرقوا في بحار النسيان. غمرتهم الرمال المبتلعة. انهارت عليهم أطنان الغبار. جماهير المنسيين التي تجوس دهاليز التاريخ كالظلال السوداء من عتمة إلى عتمة أشد قبيلٌ يعدل ألوف المرات قبيلَ التاريخ. إني وأنا ألقي إليك ببعض المنسيين لآسى لعشرات الملايين الذين غرقوا إلى الأبد في المحيط. فلا يذكر التاريخ منهم أو عنهم حرفاً ...

شاكر

السفر في التاريخ

السفر في التاريخ متعة مرة. أجربت المتعة المرة؟ أعرفت الركض في كهوفٍ كل خفافيش الدنيا تتنفض عليها، وكل الأشباح والرؤى، وكل الأفاعي، وكل العيون الغضبى كجمر الجحيم؟... أنا أعيش هذه المتعة الحرام وأطعمها عمري كله. التاريخ ليس مهنتي فحسب، ولكنه قدري. ولأنه قدري فأنا أعانيه بحنان العاشق وبقسوة الخنجر معاً. امتلكه في جدلية أبدية... هو برجي العاجي، ومعبد النسك. أدخل إليه بالمسوح والقدمين الحافيتين! وهو قبل كل شيء، وفوق كل شيء الكهف السحري الغاوي، ونافذة الهرب وراء الزمان!...

ألم تشعر مرة بالحاجة إلى الهرب؟ الحجارة التي ترمي عليك في الطريق. انهيار الأحلام أو المبادئ. الفكر اليومي كالشوك في المخدة. عواصف اليأس تحاصرك كريح السموم. أليست كلها دعوة ملحة للهرب؟ وإذا كان المطاردون بالهموم يهربون إلى كأس. أو إلى ورق اللعب والنرد؟ أو إلى الاعتكاف مع الله وجهاً لوجه، أو إلى سكين الانتحار... فإني تعودت الهرب من الحاضر إلى الماضي... ما إن أجد نفسي محاصراً بالبلايا، تعوي كالكلاب، بحجارة النكران والحسد، باليومي يهوى ليسحقني، ويجعلني ذا بعدين؛ ما إن أجد الرفض ينداح في أعماقي كالغثيان... حتى أفتح النافذة وأهرب إلى أرض اللا زمن.

أرض التاريخ... شهرزاد التاريخ دوماً في انتظاري هناك، حيث الصمت هو السيد الأوحد...

منذ زمن وأنا أعابث التاريخ ويعابثني... ولطالما جلست وجلس نضحك

كلانا ملء الأشداق من هذا السياسي ، وهو يحتكم إلى التاريخ ؟ أو من صاحب المذكرات الآخر وهو يكتب للتاريخ ، ومن أحمق ثالث يتصور أن التاريخ لوح الله المحفوظ ، العالم بكل شيء ، الحافظ لكل شيء ... ومن رابع ينتظر أن يسجل التاريخ له المآثر ، وخامس يأمل أن يفضح التاريخ ذات يوم خصماً من خصومه ...

« باطل الأباطيل » . كل ذلك التاريخ ــ المحكمة ــ غير موجود إلّا في الأخيلة والأماني . التاريخ ذو العدل الأبدي ، كذبة اخترعها الإنسان لتهدئة وجدانه القلق . التاريخ ــ السجل الذي لا يفوته شيء ليس أكثر من أمنية ... وفاشلة تلك الأمنية . عرائض التاريخ التي تنهال على أيدي هذا الشيخ الساحر الذي يسمونه التاريخ مكانها الحقيقي ... سلة المهملات ! هل تراني أفضح هنا سر المهنة ؟ هل أضرب بالمعول والنكران عجلي الذهبي ؟

هل أفعل ، فعلة جحا وهو يقطع غصن الشجرة الذي يقف عليه ؟

ما إلى هذا ولا ذاك قصدت ! كل ما أردت أن أقول كلمة : إن التاريخ الحقيقي هو الإنسان ... إنه نحن بكل ما نجر وراءنا عبر القرون والدهور من ضعف ، ومن قوة ، ومن مزايا ونقائص ، ومن جراح على الحق !... إنه المقبرة الكبرى لكل ما كنا وما سوف نكون ...

فإذا كان التاريخ أعمى ، أو دون ضمير ، أو ضعيف الذاكرة أو سيد الكذب والسخر ، فلأنه ما أردنا له أن يكون ... ما أردنا نحن أن نكون ...

مأساة التاريخ المؤلمة والأولية هي النسيان . إنه ضعيف الذاكرة أحياناً ... ويفقدها أحياناً كثيرة . ويعمى تارات فلا يسجل شيئاً !! ويصمت في كثير من اللحظات الصمت المريب المريب ... المحظوظون الذين يفرضون أنفسهم عليه وصلوا سطوره والصفحات . لقد طفوا على السطح . أما الآخرون : الغرقى فلهم الله وأن يضربوا الرؤوس في قاع النسيان . في التاريخ كل الحيل التي تبعد ما يريد الإنسان إبعاده ! إخراس ذكراه . إنه يسجل فقط ما يراد له أن يسجل

ويحفظ ... لو احتج الموتى. لو بعث المنسيون، ومن سقطوا على الأسطر. لكان تاريخ الإنسان شيئاً مختلفاً جداً ... إن بعضهم قد يحتج ويحاول العودة إلى الأسطر والذاكرة ... عبثاً ما يحاولون. إنهم يبعدون دون شفقة عن مراكز الاهتمام. يغلق عليهم، مع الأيام، طريق العودة إلى المسرح. يدفعون إلى الكواليس العتمة. حيث تسقط عنهم ملابس التمثيل الزاهية التي لبسوا لأدوارهم ... تسقط مزقاً ثم تحول هباء منثوراً. الهوة الكبرى للزمن تبتلع كل شيء. عدماً كنت وعدماً ستكون!

وكما أن الغابة ليست تلك الأوراق الشجرية التي تملأ المنظر ولكنها بلايين البلايين من الخلايا الحية، والنبت، والجذور، والفروع، والعشب، وكذلك التاريخ. في كل سطر منه عويل آلاف جاؤوا، وعملوا، وذهبوا، ولم يذكروا بكلمة! كطيور النورس المهيضة الأجنحة تهوي على الشاطئ لتنام النوم الأبدي وتختلط بالرمال. التاريخ كجبال الجمديات السابحة في المحيطات. أعرفت تلك الجبال يظهر منها فوق الماء العشر وتغيب في اليم تسعة الأعشار؟ إنه جبل الجليد الذي لا يظهر منه سوى واحد من البليون ... ويختفي الباقي في النسيان.

وما سمي الإنسان إلّا لنسيه ولا القلب إلّا أنه يتقلب

لقد يكون خيراً للذاكرة الفردية أن تكون نساءة. النسيان يمسح على الجراح الشخصية كالبلسم فتخمد النار فيها كما يخمد الفرح والأحقاد والحب. أما النسيان الجماعي. النسيان في التاريخ فإنه نكبة. لقد يسلب منه الكثير من أركانه. ويجعل الحقيقة ناقصة مشوهة وأغنية للشيطان!

والمشكلة أن كل قوافل المجلدات من التاريخ بما تضم من أسماء فيه بالملايين، ومن التفاصيل ومن الأحداث بكل لون، ومن أمجاد ليس معظمها أكثر من إيقاع ضائع على سطح من النحاس ... لا تضم مع ذلك شيئاً مما كان من الحرائق في عيون النساء، ومن بلايين المنسيين الباحثين عن وجوههم

بين الوجوه، وعن صدى صوتهم بين الأصوات. وتلك اللوحات التاريخية الكبرى التي نرسم وندرس إنما نسجت من بلايين الأجساد الضائعة، وملايين الأحداث الصغيرة. ومن فتات الآلام والقلوب!... أرأيت لوحة الفسيفساء؟

أحاديث هذه الدقائق اليومية، في هذا الكتاب سوف تتحدث عن المنسيين في التاريخ. قد يكون ذلك نوعاً من الهرب. ولكنه أيضاً وقفة عدل وتكريم للمنسيين... جرأة أن نحاول الذهاب إلى مقبرة الصمت، وأن نبعث من لا مجد لهم، ولا ذكر، ومن لم يبق منهم غير بعض العظام المتفحمة، أو بعض أطلال الذكريات، أو بعض الآثار غير المتوقعة... علقت صدفة على ضفاف التيار الهاوي...

ومع ذلك فسنحاول أن نجر من العتمة، بعض المجهولين. هناك وهناك بعض من مروا في الحياة كالنيازك العابرة فلم تتحرك وراءهم الأقلام. بعض من لا اسم لهم ولا ذكر. من لا يظهرون في الكتب. ولا يتحدث معلمو المدارس عنهم للطلاب... السفر في تاريخهم سفر في غابة من الدمع! إنهم ملايين الملايين بكل مكان من الأرض. ولكل زمن غبر. شهرزاد التاريخ سوف تقودنا في المتعة المرة مع بعض هؤلاء الموتى المنسيين، مع بعض الأوراق التي سقطت من ذاكرة الناس ثم ضاعت في التراب!...

أهي وقفة إنصاف لهم أم رثاء؟ أعترف أني لست أدري!

ملك آراوكانيا

هل أتاك حديث آراوكانيا ؟ وملك الآراوكانيين ؟

إنه مما أسقطه التاريخ من الحديث ، فلا علم ولا خبر ! حتى آراوكانيا هذه قطعة من المجهول عندي وعندك . وجزر واق الواق الأسطورية أكثر حقيقة منها ... فما آراوكانيا هذه؟ وأين أين؟ ومن هم الآراوكانيون؟ هذا الشعب الذي لم تسجله التوراة في شعوب الأرض القديمة ولا تحدث عنه المؤرخون ، على ما أكثروا من الثرثرة والحديث ؟!

إن شئت أن تعرف فاقرأ أولاً بعض أشعار بابلو نيرودا شاعر شيلي العالمي . إنه ابن تلك الأرض القصية ، وابن ذلك الشعب المجهول . كل نكهة تلك الأرض ، كل براكينها الكتيمة ، كل قممها الثلجية المسنونة ، كل غاباتها تغوص الأقدام في ورقها الميت وتموت الأطياف ، كل صخورها البنفسجية ، زمر الوحش ، النباتات الكسلى ارتمى بعضها فوق بعض ، زهر الثلج ، عصائب العصافير ، السحن النحاسية المغلقة ، المطر ، المطر ، المطر «كالإبر الطويلة من البلور يتكسر شهوراً طويلة على أسطحة المنازل ، أو يستحيل أمواجاً شفافة تلطم النوافذ» أو وحولاً لزجة على الطرق ... كل آراوكانيا تجدها في أشعار نيرودا . بلى ! إنها في أقصى الأرض ، على سفوح جبال الأندس المطلة على المحيط الهادي في جنوب شيلي ، ولكن نيرودا نقلها حية دافئة إلى كل قلب ! في مذكراته قال :

«من لا يعرف الغابة الشيلية فهو لم يطأ هذا الكوكب الأرضي ... من تلك

الأراضي ، من ذلك الطين ، من ذاك السكون خرجت أنا لأسير ، لأغني عبر الكون . ولدت للحياة ، للأرض ، للشعر ، للمطر ... » .

على أن القصة المنسية كانت قبل ولادة نيرودا بقرابة نصف قرن[١] ولا علاقة للقصة به ولكن بأرضه وبأهله . إنها تبدأ في شهر تشرين الثاني /نوفمبر/ سنة ١٨٦٠ ... المطر كان يرهق أربعة فرسان يهبطون الدروب الموحلة من جبال الأندس هناك . ويبلل لحية كبيرهم ويقطر من أذناب الخيول ... حين توقف الفرسان ، بعد أسابيع من السفر والجهد ، كان قد انبسطت أمامهم هضبة مدَّ البصر ، من الخضرة الندية الندية والشجر الغابي والأسرار المكتنفة بالضباب ... ومسح كبير الفرسان شاربه ولحيته السابغة علامة الرضى . وسار ساعة على ضفاف النهر الجاري بعرض مائة متر من الماء المتدفق المزبد يلتمس ممراً عبره ...

ـــ إذن فهذا هو نهر (بيوبيو) الذي يفصل شيلي عن أراضي آراوكانيا !!

لقد جاء هذا الفارس : أنطوان دوتـونين A. De Tounens من فرنسا خاصة لاجتياز هذا النهر وتجربة حظه فيما وراءه . ولا يغرنك شبح النبالة القديمة في لقبه . فهو ليس أكثر من ابن لأسرة كانت تعد تسعة أطفال ، تعيش في الفقر والمسغبة . ويعلم اللّه كم قاسى (أنطوان) ليدرس ، ثم ليهاجر ، ثم ليكون هذا الموكب المتواضع الذي يسير فيه ... يطمع في تحقيق حلم أعرض من الأفق ... يطمع أن يقيم لنفسه ملكاً ، في آراوكانيا ، حيث لا ملك لأحد بعد . المغامرون الآخرون الذي عاصروه اختاروا إفريقية خاصة ميداناً لممالكهـم « الاستعمارية » أما أنطوان فاختار المصير إلى أقصى بقعة في الأرض ، إلى

---

(١) ولد الشاعر بابلو نيرودا سنة ١٩٠٤ وتوفي سنة ١٩٧٣ . وفيما بين المولد والوفاة كان قيثارة أمريكا اللاتينية كلها في الشعر . نال جائزة نوبل سنة ١٩٧١ بوصفه « شاعر الكرامة البشرية المنتهكة » .

آراوكانيا . ولست تدري من أين هبط عليه هذا الحلم؟ ولا كيف عرف بوجود تلك البلاد ومتى قرر المسير إليها ...

مائة سنة ظل الفاتحون الأسبان الذين أسسوا شيلي يحاربون قبائل الآراوكانيين ، السكان الأصليين لتلك الأرضين . دون أي نجاح ... دفعوا هناك من الضحايا أكثر مما دفعوا في فتح أمريكا كلها . وظل الآراوكانيون يدفعون بالمقابل ... دون كلل ... كل ما نجح به الأسبان هو إجبار ذلك الشعب على التقهقر جنوباً جنوباً إلى أن حوصر في تلك الشقة الساحلية الضيقة الباردة في الجنوب ... كانو يسمون ذلك « تهدئة آراوكانيا » . أي مواصلة الحرب بالدم والنار لإفناء ذلك الشعب القديم وانتزاع أراضيه بنيران البنادق . بإحراق الأكواخ . بالإفقار المتمادي. باستخدام القانون والقضاة والمحاكم لإجلائهم ، بالكهان يهددونهم بنيران جهنم ... وأخيراً بتوزيع الخمور أيضاً !!. صحيح أن الحرب الدموية توقفت سنة ١٦٥٥ ثم اعترفت أسبانيا باستقلال آراوكانيا سنة ١٧٧٣ ولكن الحرب الأخرى : حرب الإفقار والخمر والحصار ظلت على أشدها وبالشعب العريق يؤتكل كبعض الهضاب الصخرية الصلدة .

ولم يكن اسم الشعب بالآراوكان . ولكن الكلمة أتت من آوكايس وتعني « الثائر » في لغة ذلك الشعب القديم . إنهم إذن شعب « الثوار » ... ولكن دون أمل ! أرضهم التي بقيت لهم في أواسط القرن الماضي كانت حوالي ٦٠ ألف كم٢ . وأما عددهم فكان قد تضاءل إلى حوالي ٢٠٠ أو ٢٥٠ ألفاً فقط . وكانوا ضعف ذلك مرتين ! وكان لهم من قبل الملوك ولهم الحضارة والنظام النظيم . ولكن الخمر والقتل والفقر والحصار كل أولئك قد أحالهم إلى شعب في طريق الاندثار ...

وحين وصل الفارس أنطوان دو تونين إلى نهر بيوبيسو **Piopio** كانت شيلي تعتبر هذا الشعب وأرضه من رعاياها ومن أرضها ولكن دون أن تمس الشعب أو تدخل الأرض ... أما الآراوكانيون ، بالمقابل فكانوا يعتبرون أنفسهم

مستقلين . أسبانيا الحاكمة قبل قرنين كانت اعترفت لهم بالاستقلال ... وقد عادوا إلى زعاماتهم العشائرية (الكاسيكه) ولم يأتهم من وراء بيوبيو في الشمال أي سلطة ...

كان الفارس دو تونين وحاشيته من الفرسان الثلاثة يخترقون الأعشاب الطويلة بعد أن عبروا النهر حين فوجئوا بكوكبة من فرسان الآراوكانيين ، على السروج ، بسحنهم النحاسية العريضة وأغطيتهم السميكة من الصوف التي يتوقون بها المطر ينبعون لهم من قلب الأدغال . ويقطعون عليهم الطريق ! وحين قادوهم إلى زعيم القبيلة الكاسيكه ماغنيل Magnil في القرية استطاعوا بسهولة أن يقنعوه أنهم ليسوا من شيلي ، وليسوا من الأعداء . وأنهم . إنما يرافقون هذا « السيد العظيم أنطوان دو تونين » الذي جاء لا يريد لهم إلّا الخير .
وما الخير ؟

الفارس أنطوان كان قد قضى سنة ونصف السنة من قبل في شيلي ، وفي مرفأ « كوكيمبو » يحضّر لهذا اللقاء : يتعلم الأسبانية لأنه لم يجد من يعلم لغة الآراوكان ، يحضر الخرائط والمعلومات والوثائق . يجمع الدراسات القليلة لنبات الأرض ومعادنها ... ولعواصف الأهواء فيها ! ولذلك سرعان ما عرض الأمر على الكاسيكة ذى الشعر الرمادي من الزاوية التي تهمه وتستأثر به !

قال له في جمل قصيرة حاسمة كأنها القدر : إن لم يتحرك الشعب الآراوكاني وينظم نفسه ضاع . شيلي سوف تجتاز ذات يوم قريب نهر بيوبيو وتأخذ البلاد نهائياً . وأنتم لا تستطيعون المقاومة كما أنه ليس لديكم الخبرات اللازمة لاستغلال هذه الأرض وإقامة استقلالكم الاقتصادي . وأنتم متفرقون فيجب أن تتحدوا في دولة ذات نظام . وأن يكون لديكم الخبير القوي الذي يعرف البيض جيداً ويقودكم ... ويستخرج لكم أيضاً ما تحوي أرضكم من ذهب !

وبالرغم من أن الكاسيكه العجوز ظل طويلاً يرمق أنطوان ولحيته

السابغة بالجذر إلَّا أنه في أعماقه اقتنع بالأمر لأنه كان مستعداً من قبل لمثل هذا الاقتناع ... الذي يدغدغ أحلام الآراوكانيين ، وقال وهو يعب من « المائة » الحارة في أوعيتها الخشبية التقليدية ، ويحلم « بالذهب » المنتظر الذي استدارت له عيناه وجوانحه :

ـــ إن ذلك يحتاج إلى معجزة !

وأجاب أنطوان بسرعة ، كلا إنكم تحتاجون فقط إلى ملك يجمعكم ويصبح الأب للجميع . وأنا مستعد أن أكون ذلك الملك ...

ولم تدم مفاجأة الكاسيكه طويلاً . لقد سأله :

ـــ ولكن لماذا أتت ؟ من أنت ؟ ومن يساندك ؟ وما هي قواك ؟ وأين ذلك ... الذهب ؟

ولكن أنطوان أسرع إلى الكذب الذي كان قد تهيأ له من قبل :

بنى للكاسيكه العجوز قصوراً من الأوهام ، وزوق الأبواب والمداخل والمخارج :

حمى الاستعمار كانت آخذة بألباب أوربا في ذلك الوقت . وكانت إنكلترا وفرنسا خاصة ، في السباق للسيطرة الاستعمارية قد ابتلعتا معظم « الفطيرة » السوداء الإفريقية . وجنوب آسيا . وتراودان الشرق الأقصى . وبلاد العرب ، وإرث « الرجل المريض » العثماني .

وروسيا تبدأ الزحف ، لاحتلال تركستان الإسلامية وتعبر سيبيريا للوصول إلى المحيط الهادي ... والمغامرون ينطلقون كالأسهم النارية في كل اتجاه ، وفي الجباه أحلام يقظة عرضها السموات والأرض ... ولم يكن صعباً على الفارس المغامر أن يصوغ أسطورته :

ـــ أنا الأمير أنطوان دو تونين . ولدى كذا من الخبرات . عندي الأموال . وسوف تلحق بي القوى ... الموجودة في أوربا . أعرف الوسائل الحديثة في

الحرب . وأنا حيادي وإنما جئت خصيصاً لإنقاذ آراوكانيا وتقديم العدل لها .

وسأله الكاسيكه :

ـــ ولكنك وحيد هنا . وأوربا بعيدة . هل لديك كتب توصية وأموال ؟..

الفارس المزيف لم يكن يملك سوى مبلغ محدود جداً من المال ولا شهادة معه سوى شهادة التحاقه بالمحفل الماسوني في بلده ... وأخرجها ! أما المال فالذهب الآراوكاني موجود ينتظر فقط من يعرف استخراجه ... وهذا « المنقذ » على استعداد لاستقدام أعوانه الخبراء من أجل ذلك ...

كان المطر يهطل كالمزاريب ... وغرق « الكاسيكه » في فترة من الصمت تحت دثاره السميك . ثم استمهل إلى اليوم التالي ليقول كلمته ...

لا تهم المفاوضات التي تمت بعد ذلك ولا الأحاديث التي رددها أنطوان بلحيته الطويلة المؤثرة على مجمع الزعماء المحليين لإقناعهم . الهام أن نعرف أن الفارس المغامر قد استطاع في النهاية أن يصوغ لهم الأحلام . وأن يضع نفسه على رأس هذه الأحلام . وما كاد يفوز بموافقتهم حتى أصدر في ١٧ تشرين الثاني /نوفمبر/ سنة ١٨٦٠ أول مرسوم من مراسيم الدولة بدأه كما يلي :

« نحن الأمير أوربي أنطوان دو تونين ،

آخذين بعين الاعتبار أن آراوكانيا لا ترتبط بأي دولة .

وأنها مقسمة إلى قبائل وأن حكومة موحدة قد أعلنت فيها للمصلحة العامة نرسم بما يلي :

مادة أولى : تؤسس ملكية دستورية وراثية في آراوكانيا ويسمى الأمير أنطوان دو تونين ملكاً ، باسم أوربي أنطوان الأول ... »

ولما كان الملك مستعجلاً فقد أتبع هذا المرسوم بست وستين مادة تشكل دستور المملكة الجديدة « مملكة آراوكانيا » . وبعد فترة قصيرة تلقى رئيس جمهورية شيلي ، ووزير خارجيتها ، رسمياً ، نص هذا الدستور وبلاغ استلام

الملك الجديد عرش آراوكانية ... ونشرت ذلك الجرائد الشيلية ... بعد أيام أخرى تلقت حكومة شيلي من هذا الملك «مرسوماً مؤرخاً بـ ٣٠ تشرين الثاني /نوفمبر/ سنة ١٨٦٠ يبلغها فيه أنه ضم إلى تاج آراوكانيا بلاد باتاغونيا في أقصى الجنوب الشيلي! «لأن لأهل باتاغونيا ماللمواطنين الآراوكانيين من الحقوق ...»

ومهما بدا الأمر مزاحاً غريباً فيجب أن نعرف أن الفارس المغامر قد أقام، بهذا الشكل المفاجئ، مملكة تبلغ في المساحة ضعفي مساحة فرنسا وفي منطقة ذات شأن اقتصادي واستراتيجي فريد ... وبلغ الأمر من الجدية بحيث قبلت إنكلترا وإيطاليا وفارس قناصل آراوكانيا، بالفعل وظهر اسم أمير آراوكانيا في تقويم (غوطا) للملوك[٢] ... وأخذت المغامرة التي لا معنى لها تتحول حقيقة ... وحقيقة واقعة! لو لا أن صاحبها ارتكب الخطيئة المميتة!

كانت موارد البلاد المالية تنضب بسرعة شديدة وليس لديه من مورد فاجتاز نهر بيوبيو شمالاً إلى بلدة (فالبارايسو) (بجانب سانتياغو عاصمة شيلي) ومن هناك في ٣ حزيران /مايو/ سنة ١٨٦١ أطلق إلى فرنسا والفرنسيين نداء قال فيه: «ليأت أولئك الذين لا يخيفهم السفر البعيد، لمعونتي في بناء فرنسا جديدة ... لا أطلب منهم إلّا الفعالية والخلق الكريم لأننا حين نرغب في تمدين الآخرين فيجب أن نقدم لهم المثل الطيب ...». وطلب من الفرنسيين الاكتتاب الوطني لذلك ...

كانت حكومة شيلي تحسب أن فرنسا تقف وراءه وأنها سيأخذها الحماس لندائه ولم تكن تريد الاصطدام بها فاضطرت للسكوت. ولكن نداء

---

(٢) غوطا هو اسم تقويم سنوي ودليل للأنساب والدبلوماسية والإحصاءات كان يصدر في المدينة الألمانية التي تحمل هذا الاسم منذ سنة ١٧٦٣ باللغتين الألمانية والفرنسية ولم ينقطع عن الصدور إلّا سنة ١٩٤٤.

المغامر الملكي سقط في الفراغ . لم يجب عليه أحد . ولا دفع له أحد فلساً ... ما أخذه أحد على محمل الجد . كانت التعليقات الفرنسية بالعكس تعليقات قاتلة . كانت تتكلم عنه كلامها عن مهرج وتتحدث عنه على أنه ملك من ملوك الورق أو بعض الأوبيرات ! أما إمبراطور فرنسا في ذلك الوقت نابليون الثالث فكانت لديه غزلان أخرى يطاردها ...

وهكذا قررت شيلي التحرك !.. وفيما عاد أنطوان إلى آراوكانيا فجمع القبائل في سطح من الأرض ودار زعماؤها الفرسان حوله خبباً أربع مرات ، وناول الكاسيكه علماً مثلث الألوان (أزرق ، أبيض أخضر) معلناً أنهم يجب أن يموتوا فداءه وصاح الآراوكانيون : عاش الملك ...

ـــ فيما كان ذلك كانت حكومة شيلي تقدر وتدبر ...

كيف انتهى الأمر ؟

بأبسط وسيلة ! اشترت شيلي الدليل الذي يستخدمه « الملك » أنطوان فوقع في كمين على الحدود وسيق إلى زنزانة لا يرى فيها أي نور ... وبالرغم من أنه استطاع الفرار بعد ستة عشر شهراً إلَّا أنه وقع في قبضة السلطات الشيلية مرة أخرى وفي سجن أمر وأدهى ...

وفي المحاكمة كانوا يدعونه « بالملك أنطوان الأول » . ألم يكن قد كسب هذا اللقب بجهوده وبتأييد الشعب ! .. وكان له بلاد وعلم وجيش ودولة ودستور ؟ ولكنه في النهاية أعلن أنه ... مجنون ! ووضع على ظهر مركب فرنسي مطروداً من البلاد !

بلى ! حاول عدة مرات وخلال خمس عشرة سنة أن يصل إلى مملكته عبر جبال الأندس الثلجية فأخفق ... وحين عاد في النهاية إلى بلده الأصلي مجرد أفاق فقير لم يطل عمره سوى عدة أشهر . وحين أعلنت الصحف موته أعلنته وسط أسطر من السخر المفترس ... أليس ذلك دوماً نصيب المخفقين ؟

ملحمة الرغيف

إذا ذكر الاغتراب العربي وذكر المغتربون في الأمريكيتين أو في إفريقية أو أستراليا انداحت في الخواطر قصص بينها وبين ألف ليلة نسب واشج ، وقرابة ابن العم لابن العم ... فكلاهما درهم من الواقع في قنطار من الأوهام ، وكلاهما لهاث عبثي وراء المجهول ، وكلاهما دن من العلقم كتب عليه التجار أنه خالص الشهد !... والاغتراب نداء من الإغراء المزلزل أين منه نداء السيرين التي يتحدث الإغريق أنها كانت تنادي البحارة في المضائق فلا ينجون منها إلّا إذا صبوا الشمع في الآذان !...

ويحدثونك في مثل مغامرات السندباد ، وأخبار دليلة المحتالة والشاطر حسن ، عن المغترب الذي عاد فبنى القصر والجامع واشترى أراضي القرية وما حولها ، وعن الآخر الذي صارت أملاكه تسير فيها القطارات الحديدية ساعات . وعن الثالث الذي ذهب أجيراً في الحقل ولديه الآن عشرة آلاف عامل في المصانع ! وعن الذي احتكر بن البرازيل ، أو تحكم بنحاس شيلي ، أو امتدت مزارعه والبقر فهو لا يعرف لها حداً ولا عدداً ...

ويحدثونك ويحدثونك ... وإنما يتحدثون عن بعض شجر الدوح في الغابة جاهلين أو متجاهلين الجذور ، ودنيا العشب المسحوق . يتحدثون عن قمة الهرم ناسين ما انغرس منه في غيابة الوحل والطين ... وإلى الأبد !...

يتحدثون عن المغتربين العرب في أطراف المسكونة الأربعة وقد أضحوا اليوم بالملايين في البرازيل والأرجنتين وشيلي وفنزويلا وكولومبيا وفي الولايات المتحدة وكندا وكوبا والسنغال ونيجريا وأستراليا . وفيهم النواب البارزون

والسياسيون الذي وصلوا رئاسة الجمهورية ، والمتمولون تهتز لهم أسواق المال ، وأصحاب المصانع والمزارع ، والمهندسون ورجال الأعمال والأطباء ، والفنانون والكتاب والمحامون والشعراء بمئات مئات الألوف . ونحن نتقاضاهم أن يكونوا لنا ومعنا . ونسأل أحياناً عن ثقلهم بين الأثقال وعن وزنهم في الموازين ...

كل ما نعرف من قصة الهجرة والاغتراب فإنما هو فقط نهاياتها الحالية الزاهية . نعرف الأزهار الضاحكة الطافية على السطح . نعرف قصص الذين نجحوا ... ونعرفها بعد النجاح ، وبعد قرن كامل من التأقلم والإنتاج والبناء المرهق لبنة لبنة . أما قصص الفاشلين ، ملايين الفاشلين (وقد يبلغون ٩٠٪ من المغتربين) الذين صاروا سماداً للأرض . أما الجماجم التي نما عليها الطحلب في الغاب وجهامة المساء لا أمل فيه للمغترب برغيف أو سقف يؤويه ، وهول الأدغال تهرب منها الجن ولا بد من عبورها ، واجترار اليأس وراء قدح من (الكاشاسا) محرقة كاللهب ، وشتيمة المقدسات أمام بيشو (يانصيب) لم يربح وانطفاء العيون على اللا شيء ... أما الجانب الآخر الصدئ الكدر من المدالية اللامعة ... فلم نعرفها ولم يعرفها أحد ...

هل أحدثك ببعض هذه الملحمة المنسية ؟... سأقص عليك بعض فصولها الأولى المجهولة والتي لم تكتب بعد ...

قبل حوالي مائة سنة ونيف (حول سنة ١٨٧٠) بدأت السفن تتحرك بالمغتربين من بلاد الشام أفراداً أولاً ثم جماعات . أشتات من العوامل والدوافع الاقتصادية والسياسية والاجتماعية بل والدينية عملت عليه ... حتى صار الشباب زحفاً إلى البحر . وصار الاغتراب نداء من الأغواء في الصدور . وأملاً تدفع إلى المغامرة ووراءه حتى الأمهات !!

واستمرت هجرة المغتربين أكثر من نصف قرن جرفت معها مئات الألوف بعد المئات .

في السنوات الأولى !! المجاهدون الأولون عملوا « رسل قداسة » . كانت

ملابسهم الشرقية، والإعلان أنهم قادمون من أرض السيد المسيح، تكفي لتصريف ما يحملون من مسابح وأيقونات وتعاويذ وصلبان ... يزعمون أنها من بيت لحم والقدس ... ولكن هذه الصنعة سرعان ما ماتت يوم كشف اليهود مصادر بضاعتها في أوربا فأغرقوا بها الأسواق !...

أما بعد ذلك فقد بدأت ملحمة الرغيف ... يوم كان المهاجر يصل أرض المهجر كان يودع أحلام الذهب يغرفه غرفاً على الأرض، ليصادي الرغيف. تتبخر آماله على الصخور. وتضيق وتضيق حتى يصبح الرغيف حلماً. وحتى لا يجد المغترب سوى عضلاته يؤجرها ليعيش. هذه المرحلة هي المرحلة المجهولة التي نسيها التاريخ من قصة الاغتراب ...

أوائل المغتربين عمل بعضهم بالجندية. تطوعوا مع الثائرين لتحرير كوبا من الأسبان سنة ١٨٩٨ أو في الحروب بين كولومبيا والبيرو سنة ١٩٣٤ أو مع بوليفيا والباراغواي سنة ١٩٣١. وذات مرة سنة ١٩٠٣ استعادوا وحدهم للبرازيل مدينة آكرة من بوليفيا. ورفعوا عليها العلم البرازيلي !...

ولكن الحروب كانت قليلة متباعدة فلم تطحن تلك الألوف المؤلفة من المغتربين. الذي طحنهم هي مطاحن أخرى. بعضها في الغابات وبعض في الموانئ القذرة وبعض مع السل والقمل. وبعض في الغابات المفترسة. في الولايات المتحدة مثلاً معامل الولايات المتحدة هي التي التهمتهم. كان التطور الرأسمالي الصناعي بحاجة إلى الأيدي العاملة، فالتهم هذه الدفعات البشرية دفعة بعد دفعة. معامل فورد. جنرال الكتريك. مصانع النسيج في نيو إنكلند. مصانع شيكاغو وأوستن وويسترماس كلها عرفتهم. وعرفتهم كذلك مناجم الفحم والحديد وقضبان السكك الحديدية على امتداد البلاد عمالاً مياومين كما عرفتهم مزارع القطن والقمح يعملون في المواسم في ميشيغان ووسكنسون ... البدل الزرقاء أضحت قدرهم الشرس مع ما يتبعها من سل وجوع وغرف منتنة ومذلة ... بعض هؤلاء هو الذي قال :

حياة أسير السجن في موطني مثلي وشغل العبيد السود في مصنع شغلي
أروح مع العمال في فورد عاملاً فأصبح فرداً ضاع في عدد النمل
وهذي من المازوت والزيت بذلتي وأكل صغار الفأر من جبنة أكلي !

وآخر من أصحابه يقول :

معامل فورد قد قضيت بها عمرا ألا هل أرى بعد الزوال له نشرا؟
وقاسيت أتعاباً بصدري مريرة وهيهات أشفى من مرارتها الصدرا
تخال شباب العرب قبل وصولها إلى النار تشوي من مداخنها الصفرا
فهذا عليل يائس من شفائه وذاك يداوي من أذاها ... ولا يبرا

إنهم الأكثرية الساحقة من المغتربين في الولايات المتحدة هؤلاء الذين دفنت أحلام هجرتهم ، ودفن شبابهم كله مع خيال الثروة ، في بدلة من الزيت وبين كتل من العمال محا وجوهها دخان المصانع ... في وسط هذه الجماعات التي علكتها الآلة هناك نبت كالزهرات الغريبة الوحشية ، أدب جبران خليل جبران وإيليا أبي ماضي ، وميخائيل نعيمة ونسيب عريضة والآخرين ...

ولكن ذلك الأدب مع الأسف لم يعبر عن تلك التجربة المرة . ولم يتحدث عنها . وقد ماتت مع الموتى ، ونسيت مع المنسيين ، أهذه هي القصة كلها ؟ كلا إن لها في أمريكا اللاتينية حديثاً آخر ...

ولعله الحديث الأفجع ! فليسوا بالقلائل أولئك الذي أضحوا يوقنون أن المغترب إنما هو مقبرة كبيرة لدفن الأحلام !

دفن الأحلام

حديث الأمس عن الاغتراب والمغتربين أثار الشجون في بعض أصحابي، فأقبل يسعى قال :

ــ أنا كنت بعض هذه الآلات البشرية، بعض عبيد الآلة الذين تحدثت عنهم في المهجر الأمريكي. ولكن هل حدثوك عن المنسيين في أمريكا اللاتينية؟... هل عرفت قصص المطاط والكشة؟

هل بلغك خبر الموت الأخضر؟

وابتسمت ... ﴿قل سأتلو عليكم منه ذكراً﴾ ألم أقل إنه قصة أخرى؟

المعجزة المهجرية العربية التي نعرف إنما كانت معجزة بذلك القرن من الجهاد الأكبر الذي سبقها. ومامن سبيل لوصف الملاحم التي عاشها المغتربون وعلى الأخص الأولون. لأنهم تساقطوا مع الذكريات المرة جسداً جسداً. ولم يلملم أحد عن شفاههم تلك المآسي التي عاشوها ... مائة سنة. حتى أولادهم يطردونها من ذكرياتهم. يقفلون عليها بالمزاليج خجلاً منها ... أما الشيوخ فيتفاهمون حولها بإشارة. بنكتة. بزفرة. بدمل على الكتف. ثم يغمضون الأعين يتذكرون ... يتذكرون «التوركو» كلمة الإهانة التي كانت تلاحقهم، كعواء الكلاب، بكل مكان ... يتذكرون غرف المبيت النتنة التي كانوا يسكنون: واحد منهم، ونحن في قصره الوثير، قال لي: هذا القصر يذكرني دوماً بغرفة نزلتها سنوات. صاحبة النزل كانت عبقرية في الابتكار. لكي تتسع الغرفة لأكبر عدد من النزلاء ضربت أوتاداً في الجدران ومدت عدداً من الحبال بين حائط وحائط على ارتفاع منخفض. وكان مبيتنا في الليل أن

نجلس بين كل حبلين، وبعضنا أمام بعض، نتكئ على قطعة الحبل فهي المخدة. وبساط الغرفة المهترئ هو الفراش... يتذكرون فيما يتذكرون صراعهم مع الغابات... كان معظمهم إنما يعيش متنقلاً للبيع على الطرق. والطرق هضاب، وجبال، وبراري وحشية، وأدغال لا تنتهي. شاعرهم الياس فرحات هو الذي قال لي: كم قاسيت؟ كم جعت؟ كم تعبت وتعتب:

كم طويت القفار مشياً وحملي فوق ظهري يكاد ينقض ظهري
كم قرعت الأبواب غير مبال بكلاب وقر فصل وحر
كم توغلت في البراري وقلبي سابح مثل زورق في نهر
كم تعرضت للعواصف حتى خلت أن الثلوج في القفر قبري
كم ولجت الغابات والليل داج ووميض البروق شمس وقمري
كم توسدت صخرة وذراعي تحت رأسي وخنجري فوق صدري

وحين سألته: ألم يكن ثمة قرى تبيتون فيها... قال: بلى!... ولكن لو عرفت البر البرازيلي الأوسع لعرفت كيف كنا نبيت...

نبيت بأكواخ خلت من أناسها وقام عليها اليوم يبكي وينـدب
مفككة جدرانها. وسقوفها يطل علينا النجم منها ويغرب
عليها نقوش لم تخطط بريشة تظن صباغاً لونها وهو طحلب
يغني لنا فيها الهواء كأنه ينومنا والبرد للنوم مذهب
فنمسي وفي أجفاننا الشوق للكرى ونضحي وجمر السهد فيهن يلهب!...

ولعل أقسى ما يتذكر المغتربون من ملحمة الاغتراب قصة المطاط؟ ما كتب أحد قصة المطاط في البرازيل...

فيما بين سنة ١٨٨٠ والحرب العالمية الأولى كانت معامل الولايات المتحدة في حاجة عنيفة إلى المطاط. وقد وجدته في حوض نهر الأمازون... فأقبلت تدفع مدراً من البشر إلى حوض الأمازون، في البحث عن المطاط. وما حوض الأمازون؟ قارة تزيد على نصف أوربا من الشجر الملتف. وأمطار استوائية سخية، ونهر لا أعظم ولا أرهب. يجتمع إليه ألفان من الروافد. وتنداح

في لجته المتحركة ثلاثة آلاف جزيرة ... ويسير والبعد ما بين ضفتيه خمسون ، ثم مائة ، وفي النهاية مائتان من الكيلومترات ... هو بحر الأمازون الذي كان يسميه الطيارون : جهنم الخضراء .

كان المطاط في مطلع القرن هو صرخة الذهب . وأشجاره هي بعض أشجار ذلك المحيط الغابي الوحشي . وأقبلت الشركات والتجار المغامرون يلملمون الآلاف بعد الآلاف من المغتربين العرب ، في السفن النهرية ، على الأمازون . ثم يغلغلون بهم في الزوارق الصغيرة بين الروافد . يزرعونهم على الضفاف ، بين أحدهم والآخر عشرون كيلومتراً ...

وينصب الرجل خيمة . يعلق في أعلاها الحبوب التي تركت لأكله خوف الحشرات القارضة . والبضاعة التي أعطيت له كي يبادل بها المطاط مع الهنود البدائيين : نسيج رخيص . إبر . أمشاط . خرز . لعب . ويعلق (الهاماكا) أرجوحة النوم بين شجرتين وينتظر الهنود (الكابوكلو) أن يطلوا عليه بما جمعوا عن أشجار المطاط من سائل . أو يسعى هو إليهم بما لديه في الزورق الصغير . إلى قرى الخشب المبنية في الماء أو وراء عتمة الأدغال .

الذين جنوا من الرعب ، أو ضاعوا في الغاب المفترس ، أو غادرهم الهندي جمجمة تسعى إلى صدر ، أو كانت التفافة أفعى (السوكوريبي) أو عين الفهد الحمراء آخر ما رأت أعينهم ، الذين فتك البعوض والمرزغيات بدمهم ، فهم هيكل من لحم عظمي أصفر ، أو تورمت أرجلهم بالفيلاريوسي فأضحت كجذع شجرة ضخمة أو أرهقهم المطر ، والمطر ، والمطر ، حتى استحالوا عاصفة من بكاء مجنون ، أو لم يترك النمل المفترس في مآقيهم سوى الحفرة السوداء ، أو تخطفهم تمساح (جكاري) ، أو سمكة بيرانا الوحشية عن الشاطئ ، فشرايينهم لحظة من الحمرة على النهر . أو أغواهم الزهر السام فهم جيف وعظام تحته ... كل هؤلاء لم يدر بهم أحد . ذهبوا ضحايا بكماء في السباق الأبكم إلى الثروة ... أقصى ما كانت تجود عليهم به السفن النهرية

العائدة : نظرة رثاء . ثم تنطلق ... أما الناجون فكانوا ينطلقون إلى الجنوب إلى سان باولو ليحملوا « الكشة » صندوق البضاعة ويبدأوا بها رحلة العشرين أو الثلاثين سنة ...

بلى ! كان بعض المغتربين يبقى في الأمازون يغريه الذهب . كان الهنود (الكابوكلو) يحملون معهم أحياناً فتات الذهب يجمعونه من أسرة السيول والأنهر الجافة ليبادلوا به . وبعض أبناء الاغتراب كانت تبلغ به الجرأة والطمع حد مشاركة الهنود هذا العمل المرهق في الرمل والنهر مع البعوض والعرق ... وأكل دريس الذرة في المساء ... بقايا هؤلاء ما يزال إلى اليوم هناك عيوناً منطفئة . وقوى انتهت إلى العكاز وأمل وحيد هو قوت يوم !..

بائع المسابح . الجندي . جامع المطاط . الباحث عن الذهب مراحل من الاغتراب العربي نسيتها الذاكرة ونسيها التاريخ ...

ولكنها كانت الأساس في معجزة الاغتراب العربي هناك .

ألا يستحق أصحابها تحية الذكرى بين المنسيين ؟

عبيد المدينة

خاطرة اليوم قصة كانت في المدينة المنورة . هي ورقة سقطت من تاريخها ما ألقى إليها أحد بالاً في التواريخ التي سطرت لذلك البلد الحرام .

وإنها لمهجر الرسول الأعظم . والعاصمة الأولى للإسلام . ولكنها سواءاً في العهد الأموي أو العهد العباسي الأول ما لقيت إلّا النكران والعنت المؤلم . السياسة ، قاتل الله السياسة ، جعلتها في موضع الريبة من الحكام . أليس يجتمع فيها رؤوس الأسرة العلوية ، والطامعون في الخلافة من آل البيت ؟ ولقد كان الحاكمون يتمكنون منها على الدوام . لأن مواردها كانت دوماً أضعف من أن تقوم للمسلمين المتكاثرين فيها ، والواردين إليها من كل فج عميق . كانت منذ العهد العمري ، ودون انقطاع عالة على قوافل الميرة . ترد إليها على الأخص من وادي النيل ... فإذا انقطع هذا الشريان كانت المجاعة المذلّة !..

وحين وصل العباسيون إلى الحكم كانت المدينة سنة ١٣٢ هـ . ٧٥٠ م قد خرجت قبل سنوات ثلاث فقط من هجمة مدمرة قادها أبو حمزة الخارجي عليها . ولكن الخلفاء الجدد من بني العباس ظلّوا يرقبون ما يجري بالمدينة . كل حركة فيها كانت ذات صدى في العراق . وتحقق الظن . فما مضى على الخلافة العباسية ثلاث عشرة سنة حتى وجد أبو جعفر المنصور نفسه أمام ثورة في المدينة يقودها أبرز الشباب في البيت العلوي : محمد النفس الزكية ...

لم يفاجأ المنصور بالثورة . فلقد كان سِجْنه قد عرف رؤوس العلويين ، وسيفه قد قتل منهم من قتل . ومن بين القتلى والد « النفس الزكية » . ولقد ود ،

بقطع الأيدي ، لو تمكن من هذا الشاب الطموح !.. فلم يستطع إليه سبيلاً . وحاول خديعته فلم ينخدع . وحين كانت الثورة لم يكن إلَّا السيف !.. وفي ظاهر المدينة قضى النفس الزكية في المعركة في منتصف رمضان والناس صيام ... وكان على المدينة أن تتحمل العواقب ، وذلة التشفي من الجيش المنتصر ...

وقع البلد ، بعد الهزيمة ، وسحق القوي ، كالنسر الجريح .

وبدأت صنوف الإذلال تعضه : صودرت أملاك الثائرين . فرضت الأتاوات . قطعت الميرة عنه . نزلت السياط بالجلد والحبس . وأطلقت أيدي الجند في اغتصاب الأموال والمتاجر وفي العدوان . وبدا كأن الهزيمة قد أسلمت المدينة وأهلها لسكين الجزار ... الوالي الذي تسلم المدينة باسم الخليفة المنصور وضع أصابعه في آذانه . لا يريد أن يسمع شكوى . ولا أن يرفع عدواناً ... بلى ! كان ينهر الشاكين ويشتم من يقوم منهم ببابه !..

وبغتة وعلى غير انتظار من أحد قامت الثورة في المدينة . لم يقم بها أهلها ، ولا بقايا الثائرين ، ولا العامة من الناس ، ولكن ... العبيد السودان ! بلى العبيد ! ثاروا أنفة لأسيادهم ، ودفاعاً وحمية لدار الرسول ...

بدأت الثورة في السوق . غالب الجند العباسي بعض الصيارف على كيسه فاستغاث . وانتهب آخر من الجزار لحماً ، ورفض دفع بعض الثمن ، فاعتوره الجزارون السودان ، فخر عن دابته قتيلاً . ثم تنادوا يلحقون الجند بالعمد . فيقتلون ويذبحون . ونفخوا في بوق لهم ، فكان السوداني إذا سمع النفخة يترك ما في يده ويأتي مكان الصوت يقاتل مع إخوانه . وهرب الوالي العباسي من المدينة . طارده السودانيون الثائرون من الجامع ، وفي الأزقة ، ثم إلى ظاهر البلد مع جنده ، فلم يقف إلَّا وهو على مسيرة ليلتين من المدينة ...

زعماء الثوار كانوا نكرات من النكرات . ولكن المدينة أخذت تتهامس بأسمائهم وأي أسماء؟ رمقة . وثيق . يعقل . أبو قيس . أبو النار . عنقود . صاروا

النجوم التي تأمر وتنهى . وإذا كان قطع الميرة ، ثم الحصار والعسف ، قد أجاع الناس ، فقد تدبر السودان الأمر وقعوا على مخازن الميرة للجند . وكانت قد حملت لهم في البحر مدداً بعد مدد ، فانتهبوها ، حتى أضحى حمل الدقيق بدرهمين وراوية الزيت بأربعة دراهم !!..

واستخذى الجند العباسي على المباغتة ، وضعف الحيلة ، حتى كان الفارس منه يلقى السوداني ، وما عليه إلّا خرقتان على عورته وذراعه ، فإذا تولى عنه شد عليه السوداني بعمود من عمد السوق فقتله . ودب فيهم الرعب حتى كانوا يقولون : ما هؤلاء السودان إلّا سحرة أو شياطين !

وأقبل الثائرون على السجن . فأخرجوا من فيه ، ومن بينهم فقيه المدينة ابن أبي سبرة ، فأصعدوه المنبر ، وما تزال القيود في يديه ورجليه ، ليصلي بالناس !..

وبدأ عقلاء القوم يخشون العواقب . كانوا يعرفون أنهم لا يقومون ، بعد الهزيمة للمنصور وجنده . وقد طردوا الآن واليه . وقتلوا الجند . وجاء بعضهم إلى معسكر السودان في سوق المدينة يسألونهم أن يتفرقوا فقال زعيمهم وثيق :

مرحباً بكم يا موالينا . والله ما قمنا إلّا أنفة لكم مما عمل بكم . فأيدينا مع أيديكم . وإن الأمر قد وقع بما ترون . الخليفة غير مبق لنا ، ولا لكم . فدعونا نشفكم ونشتف لأنفسنا ... وإني لأرى أن نعهد إلى أربعة من بني هاشم وأربعة من قريش وأربعة من الأنصار وأربعة من الموالي ثم الأمر شورى بينهم ...

ولكن هذا المشروع الجمهوري كان مستحيل التطبيق ... على الأقل في الوضع الذي كانت عليه المدينة يومذاك !.. وتغلب صوت التعقل والمهادنة . وفيما كان الثائرون يفرقون ، كان وفد من أهل المدينة يلحق بالوالي يسترضيه ويعيده !..

وكانت الترضية على حساب الزعماء السودانيين . قطعت أيدي أربعة

منهم جزاء التمرد ... وقد قبلوا ذلك طائعين ، فداء لمواليهم ، وفداء لمدينة الرسول ...

أليس غريباً أن يغيب هذا النبل في هوة النسيان ؟

«في سبيل النظام»

القصة المنسية هذه المرة هي من تاريخ البحر والأساطيل ...

البحر هادئ على الشاطئ السوري. والجو كسول ثقيل. وعلى مرمى البصر غير بعيد عن الشاطئ، تتحرك على مهل في خطين متوازيين مجموعتان من السفن الحربية، الواضحة المدافع، ووراءهما في الجو نهران من الدخان الشديد الكثافة والشديد السواد. تختلط به سحب ممدودة من البخار الأبيض تصبغ الجو بالرماد قبل التبدد البطيء. السفن كانت إنكليزية. والدخان الكثيف إنما كان لأننا الآن في سنة ١٨٩٣، في ٢٣ حزيران /يونيو/ منها. وفي هذه السنة كانت السفن ما تزال تسير على البخار والفحم. وهذا الاستعراض لقطع الأسطول البحري الإنكليزي أمام شواطئ الشام كان استعراض تهديد للدولة العثمانية وسير الأسطول في خطين متوازيين كانت مسيرة تقليدية لتزيد من وقع التهديد ... فكتوريا، ملكة إنكلترا، في ذلك الوقت وصاحبة الـ ٧٤ عاماً تريد أن تظهر عضلاتها وأنيابها. وأنها في أوج القوة الاستعمارية. وأنها الإمبراطورية التي لا تغيب عنها الشمس. وقد جاء الأسطول من جبل طارق إلى سواحل الشام ليقول أنا هنا ... أقوى البوارج تحمل أحسن الجيوش البحرية تنظيماً. وتستطيع أن تضيف: ويقودها أكثر أمراء البحر عناداً واعتداداً وضيق أفق !..

أسطول الاستعراض كان يتألف من ثلاث عشرة قطعة بحرية بين دارعة وطراد ومدمرة. أوامر القطع الحربية كانت حاسمة في تحديد السرعة، وفي تحديد المسافة بين كل قطعتين. وفي تحديد البعد بين الخطين المتوازيين بمائة وعشرين

ذراعاً بحرياً أي بما يعادل ١٠٩٠ متراً... السفينة التي كانت تحمل الأميرال، وهو الأميرال تريون Tryon كانت تحمل بالطبع مع شعار الأميرالية اسم فكتوريا. إنها أجمل دارعة في الأسطول البريطاني. وهذا يعني يومذاك أنها أجمل دارعة في العالم. كان الأميرال يقود الأسطول كله. وإذا كان مقره التقليدي إنما يقوم في العادة على أقوى قطع الأسطول، فإنه لا يقود تلك القطعة. إن لها قبطانها الخاص. مثلها في ذلك كمثل كل قطعة بحرية، وإن كان هذا القبطان بدوره تحت قيادة الأميرال. وهكذا كان على رأس الخط الأول من السفن: الدارعة فكتوريا التي تحمل الأميرال. وعلى رأس الخط الثاني الدارعة كامبرداون Camperdown ولكل منهما قائدها. ثم تأتي السفن الأخرى بالترتيب حسب شأنها الحربي.

وخطرت للأميرال فكرة حسنة في حد ذاتها: لكي تكون المناورة أكثر تأثيراً وإرهاباً ووقعاً يقوم الأسطول بالاستدارة، في العودة، استدارة الصفوف الرياضية في الملعب: صف اليمن يعكس اتجاهه دائراً إلى اليسار وصف يعكس دائراً إلى اليمين ويصبح الصفان أكثر تراصاً وقرباً... ويكفي أن تبدأ الدارعة قائدة الصف لتتبعها القطع الأخرى.

وأرسل الأميرال أوامره: تدور الدارعة فكتوريا إلى اليمين ١٨٠ درجة والدارعة كومبرداون إلى اليسار ١٨٠ درجة. وانتقلت الأوامر حسب وسائل ذلك الوقت بالإشارات والإعلام... وبعد أقل من دقيقة اتصل قائد الدارعة فكتوريا بالأميرال عنده:

ـــ سيدي الأميرال... هل قلتم ١٨٠ درجة؟

ـــ نعم. ماذا في ذلك. نفذ. ثم اعترض.

ـــ ولكن سيدي الأميرال: إن أقواس التحرك التي سوف ترسمها فكتوريا يجعلها تقترب ٧٣٠ متراً من كومبرداون وكذلك قوس تحرك كومبرداون. مجموع الاقتراب هو ١٢٨٠ متراً بينما المسافة بيننا هي ١٠٩٠ متراً فقط...

دوراتنا في وقت واحد سوف يعرضنا للاصطدام .

وسمع القبطان أميراله يصرخ في جهاز الاستماع القديم بينهما :

ــ أيها القبطان . هل تزعم أنك تستطيع أن تعلمني مهنتي ؟

ــ أبداً أيها الأميرال ولكن ألا نستطيع قبل الدوران إعطاء الأمر بالتباعد لمسافة ١٤٥٦ متراً . . .

وصرخ الأميرال مرة أخرى : أؤكد أوامري السابقة . نفذ .

ــ ولكن يا سيدي هل أستطيع أن أتلقى أمراً كتابياً بذلك .

وبعد دقائق جاء الأمر الكتابي موقعاً من الأميرال . . . وضرب القبطان المنضدة بقبضته أمام ضباطه : ــ إنه مجنون . ولكن لا بد من التنفيذ . استديروا إلى اليمين ١٨٠ درجة . . . إن الكارثة قادمة وأنا أطلب ممن سوف يبقون أحياء أن يشهدوا على ما رأوا . إن لدى أمراً كتابياً . . .

في الوقت نفسه جاء الاعتراض من قبطان الدارعة كومبرداون قال :

ــ لم أفهم الأمر . أعيدوه .

وأعادوه ثم أعادوه بالتأكيد : نفذ الأوامر . . .

وعاد قائد الدارعة فكتوريا يشهد من جديد ضباطه : ها نحن قائدان . نبهنا واحتججنا على الأوامر الخاطئة . إنها ستكون أكبر كارثة تقع ضمن النظام !

وكما يفعل القباطنة المجرمون حسب القائدان فوراً على خرائطهما النقطة التي سوف يكون فيها الصدام على الضبط وأعطيا في الوقت نفسه أوامر إخلاء السفينتين وقوارب النجاة لأن الصدمة ستكون بعد تسعة دقائق ونصف الدقيقة . وبعث قائد فكتوريا بكتاب رسمي بذلك إلى الأميرال . . .

وتهادت الدارعتان الضخمتان بكل جلال وبسرعتهما القصوى إحداهما ضد الأخرى . وتبادل قائداهما التحذير البحري التقليدي : « ابتعد إنك تقع في طريقي » ولكن أياً منهما لم ينفذ التحذير لأنه إنما ينفذ أوامر الرؤساء . . .

وفي اللحظة المقدرة ، في النقطة المقدرة ، اصطدمت الدارعتان بعنف وجاء مقدم الدارعة كومبرداون وهو كالسهم الحديدي الضخم في جنب فكتوريا . وفي دقائق كانت الدارعة التي هي فخر البحرية البريطانية يومذاك تغرق في مكانها ... وكانت الأخرى تصاب بعطب كبير وكانت بين الدارعتين ٣٥٩ ضحية بين قتيل وغريق من بينهم اثنان وعشرون ضابطاً !

قبطان فكتوريا كان ، حسب التقاليد آخر من ترك ظهرها . أما الأميرال فظهر لحظة على باب غرفة القيادة . ورموا إليه بطوق النجاة . ولكنه رفضه . وحيّاهم وأغلق على نفسه الباب ... وكان شعاره الخاص آخر ما غاب من الدارعة في الماء ...

بعد أشهر ، حين مثل قائدا فكتوريا وكومبرداون أمام المحكمة البحرية كان قرارها : إنه كان عليهما أن يكونا أكثر قوة في رفض المناورة ولكنهما لا يمكن أن يكونا حتى موضع لوم فقد أطاعا أوامر الرؤساء !! وتلك الطاعة هي في الخدمة البحرية أهم من الخسارة .

وطوى الموضوع في الملفات والمحفوظات . وطوى معه موت ٣٥٩ بحاراً مع ضباطهم غابوا في البحر ... مقابل الشاطئ السوري ... في سبيل النظام والتاج !

« تاجر الموت ... والقطط »

الحديث اليوم عن منسي من أغرب المنسيين !!... في حياته كان ملء الدنيا . وحين انطفأ لم يعد أحد يذكره في أي كتاب ! من أطفال الشوارع في استامبول كان . وحين مات منذ خمس وستين سنة مات عن ثروة خرافية بآلاف آلاف الملايين . ولم يقتل إنساناً واحداً . ولم يكن قائد جيش . ومع ذلك ففي عنقه دماء عدة ملايين من البشر ...

هل سمعت باسم باسيل زاخاروف ؟

اسمه الحقيقي زخريا باسيليوس زارابولوس . فهو إذن يوناني . شوارع استامبول في الستينيات من القرن الماضي عرفته صبياً يشحذ في البارات من البحارة . ثم عمل في الإطفاء . واستامبول خشبية وحرائقها معروفة ورجال الإطفاء فيها أول الناهبين ... وبعد الأطفاء عمل في الصيرفة . وحين أضحى صاحب ثروة قليلة غير اسمه فصار : باسيل زاخاروف ليعطي الانطباع بأنه روسي . وحين أصبح وكيل شركة إنكليزية للأسلحة انكشفت مواهبه العجيبة منذ الصفقة الأولى : ذهب إلى اليونان فقال : إن لدى تركيا أسطولاً كبيراً فإن كان لدينا غواصة استطعنا إجراء نوع من التوازن ... وكانت الغواصة . في تلك الأيام هي السلاح المعجزة وحين أبدوا العجز عن شرائها قال : لا فرق ! أهديكم الغواصة ، ودخلت هذه القطعة البحرية الهامة مينا بيره . وذهب إلى العثمانيين فقال : لدى اليونان غواصة . ولدي ثلاث غواصات للبيع فما رأيكم ؟ وقرر السلطان شراء الثلاث !... ولم تنته الصفقة ! ذهب زاخاروف إلى روسيا وأفشى إليها السر التركي فقرر القيصر شراء ست غواصات ...

قبل زاخاروف كان تجار السلاح يقنعون بالنسبة المئوية المخصصة للسمسرة . وجاء الرجل فقلب المعادلة : رفع الرشوة التي يعطيها لمن بأيديهم أمر الشراء إلى ثلاثة أضعاف ورفع أسعاره إلى الضعفين ... وكان من الجرأة بحيث يترك حقيبة محشوة بالملايين على مكتب الوزير الذي يزوره . فعلها مرة مع الوزير الفرنسي المعروف أريستيد بريان فلما استدعاه أجاب : إنها لضحايا الحرب ...

في السنوات العشرين التي سبقت مطلع هذا القرن صار زاخاروف صاحب شركة السلاح فيكرز ، الشركة نفسها التي استخدمته ، والتي كانت تبيع من المسدس إلى المدرعة !... وصار اسمه « بائع الموت المفاجئ » . وصارت مكاتبه ومنازله موزعة في أركان العالم الأربعة ... وكما كانت أعماله من أسرار الدول فقد كانت حياته الخاصة من الأسرار أيضاً . كل ما عرف منها أنه وقع في حب دوقة أسبانية متزوجة ... وأنه يحتفظ في بيته بخزانة كبيرة مغلقة لا يعرف أحد ماذا تحوي من الأسرار ؟...

ولكن أحداً لم يكن يهتم بالأسرار الخاصة لبائع الموت المفاجئ . « كانت أدوات الموت التي بيديه » هي التي تشل السياسيين والصحف والجنرالات . في هذا الميدان كان زاخاروف الجبار الأول . احتقاره للإنسان كان من القسوة بحيث كان يبيع أدوات الموت لجميع الأطراف دون استثناء . وفي عين باردة كالثلج !... وحين ابتكر مهندس مبدع اسمه مكسيم ، الرشاش الأوتوماتيكي قبيل الحرب العالمية الأولى . وأسس شركة لذلك . لم يستطع بيعه لأحد . كان يجد زاخاروف في وجهه في كل مكان . فاضطر لأن يبيعه الابتكار والشركة معه . وحين وجد زاخاروف أن بعض الدول تتضايق من شراء الأسلحة الأجنبية خلق شركات أسلحة وطنية في كندا وإيطاليا وأسبانيا واليابان والنمسا وفرنسا بل وفي روسيا وألمانيا ... وفي جميع هذه المؤسسات كانت مؤسسة فيكرز الإنكليزية هي المساهم الأقوى ...

هذه الشركات تركت زاخاروف على اتصال مباشر بكل أسرار السياسة العالمية والبرلمانات والحكومات والجيوش والأركان ... وقبل أن تقوم الحرب العالمية الأولى كان زاخاروف يحسب كم تحتاج من ملايين البنادق، والرشاشات والمدافع والذخيرة والدارعات والمدمرات والبوارج على جميع الجبهات فكل الجبهات من عملائه. ويعلن لمجلس إدارة شركته: إن عصراً جديداً من الازدهار قد بدأ ... أما البشر فلم يحسب الرجل حساب الموتى وعدد الجماجم. حسب فقط عدد ما يمكن لكل بلد تجنيده من أيد تحمل السلاح ...

«بائع الموت» كان سيد الجبهات في الأشهر الخمسين التي امتدت عليها الحرب العالمية الأولى: وكان بين ما صنع وباع ٥٥٠٠ طائرة كانت أحدث الأسلحة في تلك الحرب. وانتهت الحرب بتضخم رصيد زاخاروف التضخم الهائل وبأعداد من الأوسمة رشقت على صدره من فرنسا وإنكلترا، وبجلوسه في مؤتمر السلام في فرساي خبيراً فنياً ... وأهم من ذلك بتصفية منافسه الألماني في السلاح: كروب!

وحين أوجد مؤسسة لرعاية أرامل الحرب اعتبر ذلك منه عملاً إنسانياً عظيماً !...

لم يقل أحد إنه هو الذي صنع الرشاشات التي جعلت هاته النسوة بمئات الألوف أرامل في السواد ...

انتهاء الحرب أوقف تدفق الأموال والأعمال على زاخاروف فكان يتسلى: تارة بالاشتراك في الحروب الصغيرة كالحرب اليونانية ــ التركية التي انتهت، على عكس ما يحب، بمذبحة اليونانيين في أزمير، وتارة بشراء عدد من الصحف، وتارة بشراء كازينو مونت كارلو ... أرباحه فيه كانت مائة بالمائة. فلما مل منه باعه. واحتفظ بالأرشيف السري الذي كان فيه ... وكان في هذا الأرشيف من الأسرار ما يجعل الكثير جداً من رجال الدنيا يمسكون قلوبهم

بأيديهم ويرقبون ما سوف يفعل هذا الرجل بالأرشيف وما سوف يكتب أو يقول ...

وأخيراً ... تزوج زاخاروف، وهو في الخامسة والسبعين من الدوقة الأسبانية التي أحب ... كانت هي بدورها في السبعين. وقد ماتت بعد ثمانية عشر شهراً من الزواج ... وزاخاروف عجوز يجر في عربة صغيرة! وذات يوم أحرق العجوز الأرشيف كله فالتهب مكتبه. وحين أسرع رجال الإطفاء لم يطلب منهم إلَّا أن ينقذوا خزانته السرية الخاصة ...

ويوم مات الرجل سنة ١٩٣٦ ... مات معه كل شيء. مات حتى اسمه هو الذي ما قامت حرب بين سنة ١٨٧٧ وسنة ١٩٣٦ إلَّا وكان موجوداً فيها وأسلحته في أيدي الأطراف المتحاربة على الجانبين ... ضاع مع الضائعين في غياهب الزمن ...

بلى! ظل يذكر أحياناً بسبب خزانته السرية. حين فتحت الخزانة السرية وجدوا فيها بعض الصحون وبعض زجاجات الحليب وبعض القطط!... كان يربي فيها القطط!

هل يصدق أحد هذا؟

مماليك نابليون

من أخبار المنسيين في التاريخ قصة مماليك نابليون ، المماليك المغربين .

هل أتاك حديث مماليك نابليون ؟...

نحن نعلم أولادنا في المدارس اسم هذا الكورسيكي القزم وحكاية حملته على مصر قبل ١٩٧ سنة . الرجل دوخ أوربا كلها . أراق فيها الدماء أنهاراً ... قلب العروش نشر الفكر السياسي الحديث . جعل الدنيا تدور حول وحول أعلامه ومع أحذية جنوده خمس عشرة سنة . ولكنه بالنسبة إلينا أحد الغزاة . تحرك ما بين القاهرة وعكا سنتين ثم انصرف . ويركض بعضنا وراء المفاهيم الغربية ليعتبر هذه الحملة أول العصر العربي الحديث ومطلع النهضة !...

ألم يقف جيش نابليون المنظم على الطرق الحديثة ، عند أهرامات الجيزة ، أمام جيش المماليك المنظم على أسس العصور الوسطى؟ ألم يقف السيف أمام المدفع ، والفروسية الفردية ، أمام عبقري الاستراتيجية الحربية الحديثة ؟ ألم تلتق في المعركة مفاهيم الحرية والعدالة والمساواة التي حملها جنود نابليون ، أبناء الثورة الفرنسية ، مع مفاهيم القهر والاستبداد ونهب الرعايا ؟... عالمان التقيا . وانهزم العالم المهترئ الذي يمثله المماليك ... هذه النظرة الغربية للموضوع ليس من همي الآن أن أناقش الخطأ والأنانية فيها ! إنها تنكر اليقظة العربية الإسلامية الذاتية السابقة لنابليون بكثير فيما بين نجد والشام والسودان وليبيا ... وإنما ركضت على الأسطر لأمر آخر ... إنما نذكرها لنقول إن نابليون الذي هزم المماليك ، انهزم بدوره أمامهم . لقد أنهى سلطانهم ... بلى ! ولكنهم بالمقابل غزوه . هزموه في ذاته ، لم يلبس فقط عمامتهم والسراويل الفضفاضة

ويتقلد السيف فقط، ولم يدَّع الإسلام ويتقرب من العلماء فحسب، ولكنه أيضاً أخذ بالأسلوب المملوكي في الجندية أيضاً !...

فاصطنع هذا الأسلوب ! مثله كمثل أي قائد مملوكي عريق.

والخبر على ما فيه من المفارقة صحيح !... ونابليون يدين في جانب من انتصاراته الكبرى التي حققها من بعد في أوربا إلى الجماعة المملوكية ويدين لها بالكثير ... وإن بقي هذا الكثير في غياهب الصمت والمجهول. كيف ذلك ؟

كان نابليون قد اشترى واستخدم وهو في مصر جماعة من المماليك جعلهم أولاً أدلاء وجنوداً في الجيش. بعد أن انقطع عنه المدد من وراء البحار وحاصرته القوى الإنكليزية على سواحل مصر والشام. وحين عاد، ثم عادت الحملة إلى فرنسا، عاد معها حوالي المائة مملوك. ولكنهم يصطحبون عائلاتهم وذوي قرباهم والنساء والأطفال وحتى الأقرباء الأبعدين ... رابطة الولاء المملوكية ساقتهم وراء نابليون مولاهم الجديد، يفدونه حتى الموت ... كانوا عبيداً من مختلف الأسواق. بل كان أحدهم فرنسي الأصل من سان دنيس ويدعى (علي) الرابطة الوحيدة التي تجمعهم أنهم أجهزة قتال. وقد وجدوا في نابليون السيد المقاتل.

وحين أصبح نابليون سيد فرنسا غير منازع سنة ١٨٠٤ ألف من المماليك فرقة خاصة من الفرسان، جعلها من حرسه الخاص. كان يزهو بملابسها الشرقية المزركشة، في السراويل الفضفاضة، والسيوف المحنية اللامعة، والعمائم من الحرير ... استكمل بذلك إطاره الإمبراطوري المزخرف. وجعل حارسه الشخصي مملوكاً من هؤلاء أصله من جورجيا يدعى رستم، كان يقضي الليل على بابه أين كان، في القصر أو في خيمة المعركة !... أما النساء من هؤلاء المماليك فكن يقبضن المرتبات للمعيشة من الإمبراطور.

ودخلت فرقة المماليك في حروب نابليون كلها. وأي حروب تلك ؟ كانوا مع قائده مورا، ومع لاسال، ومع لوفيفر ـــ دي نويت Des-Nouettes

وهم الذين انتزعوا أعلام الحرس الروسي في أوسترليتز أروع معارك نابليون، وجاؤوا بأعلام الأرشيدوق النمسوي في معركة واغرام ... ودمرت الفرقة في القتال ولكنها خرجت مكللة بالغار ...

الإمبراطور المغامر أسكن المماليك أول الأمر في بلدة ميلون **Melun** لكنهم تحولوا إلى مرسيليا. شمس البحر الأبيض المتوسط هناك راقتهم. كانت تذكرهم بمصر والاسكندرية... وكونوا في جانب المدينة مستعمرة إسلامية صغيرة. ولكن أهل مرسيليا لم يتقبلوا هذه الجماعة الغريبة. أبغضوها لا لأنها تمثل الإسلام والإمبراطورية العثمانية فقط، ولكن لأنهم يبغضون الإمبراطور نفسه أيضاً. المرسيليون هؤلاء الذين زحفوا سنة ١٧٩٢ حتى باريس واستولوا أيام الثورة على قصر التويلري حتى أضحى النشيد الذي ينشدونه في تلك الآونة النشيد الرسمي الفرنسي (المارسييز) إلى اليوم وعرف باسمهم هؤلاء أنفسهم أضحوا في أواخر العهد الإمبراطوري شبكة حقد ضد الإمبراطور الطاغية. انقلبوا ملكيين. وألقى الإمبراطور عليهم الحصار الذي دمر المدينة وأوصلها إلى حافة الجوع فسال حقدها والغضب في الدروب ورفضت دفع الضرائب ورفضت التجنيد للحروب وأعادها العناد إلى الهوى الملكي، هوى زنبقة آل بوربون وعلمهم الأبيض لا العلم المثلث الألوان. (وكانت) الزنبقة والعلم الأبيض من شعارات آل بوربون الذين طردتهم الثورة الفرنسية عن العرش وأتت بنابليون. وقد جرح نابليون مشاعرهم الكاثوليكية أيضاً بإهانة البابا!... وهكذا أضحت أزقة المماليك هي السوق الرمزية للحكم الإمبراطوري الكريه... وفي سنة ١٨١٤ تزعزع عرش الإمبراطور وهزم أمام التحالف الأوربي ودخل الحلفاء باريس وأعادوا الملكية فصاحت مرسيليا: عاش الملك وحطمت تماثيل نابليون كلها!... فيما كان الإمبراطور في طريقه إلى إلبا والمنفى.

لكنه عاد ليحكم فرنسا مرة أخرى مائة يوم وخرج المارسيليون أنفسهم

في الجنوب لقتاله ومنعه. وإذا لم يفلحوا في قطع الطريق عليه فإنهم لم يعطوه الجنود للحرب بل احتاج بالعكس إلى إبقاء حامية عسكرية من الجيش في المدينة خوف التمرد. وحين هزم نابليون هزيمته النهائية في واترلو سنة ١٨١٥ أفلت الزمام في المدينة. ما من قوة يمكنها كبح الحقد الدفين. حتى قائد الحامية نقل معسكره خارج البلد. تحت كل حجر في المدينة ـــ كما قال بعض المؤرخين ـــ نبتت زهرة زئبق، ومن كل نافذة خرج علم أبيض!.. الجندي الذي لم يكن يدوس شارته المثلثة الألوان كان مصيره السجن. في الشوارع كانت المذابح تسحق الجنود القدامى والثوريين وأنصار الإمبراطورية..

وتسلحت مارسيليا بكل سلاح من البندقية والحربة إلى سكين المطبخ والزجاجة الفارغة. وكان على مستعمرة المماليك أن تدفع الثمن الدموي الرهيب... وفي حزيران /يونيو/ سنة ١٨١٥ انهالت الجموع المسعورة على المستعمرة للصغيرة سحقا بالأحذية وطعناً ورصاصاً وتمزيقاً... المذبحة الوحشية ملأت مياه المرفأ القديم بالجثث، بضحايا الإرهاب الأبيض. تقرير الشرطة ذكر أن الغوغاء أحاطوا بخادمة سوداء كانت تعيش هناك وطلبوا إليها أن تصيح: عاش الملك. رفضت وقالت: ـــ لا! إن نابليون هو الذي يعطيني العيش ونحرتها الحراب وألقتها الأقدام في الماء... المستوطنة المملوكية أبيدت كلها وأحرقت. القلائل الذين استطاعوا النجاة من السكاكين والعيون الهستيرية حبسوا في حصن إيف... حيث ماتوا!

وانتهت حكاية المماليك المغربين في مستنقع الدم! أما أمجادهم فابتلعها التراث الفرنسي... مثلهم كمثل كثير من المغاربة والسنغال وسقطت القصة كلها في بئر النسيان.

« مغامرة مدين »

قبل مائة وسبعة عشر عاماً، وبالضبط سنة ١٨٧٨ نزل إلى السوق في لندن كتاب بعنوان « مناجم الذهب في مدين وخرائب المدن المدينية » ولحقه بعد سنة أخرى كتاب آخر « أرض مدين » . صاحب الكتابين واسمه ريتشار بورتون كان أحد قناصل إنكلترا في دمشق، وفي بعض مدن الشرق العربي سنين طويلة !...

ولم يتنبه للكتابين ــ فيما عدا المهووسين بسحر الشرق ــ أحد . رجل واحد التقطهما . قرأ . حفظ . درس ثم درس وفكر وقدر فقتل كيف قدر . وبنى على أساس الكتابين مشروع دولة ... أهو نوع من الهوس؟ قد يكون ولكن المشروع المنسي أخذ سنوات من التحضير والاتصالات وسنوات من التنفيذ والمعاناة ... ومائة وسبعين ألف مارك ذهبي في ذلك الوقت ... وتعدل عدة ملايين !

أما أرض مدين فمعروفة . إنها أرضنا الممتدة بين أرضينا المقدستين في فلسطين والحرمين بين مرفأ العقبة والوجه في أقصى شمال الحجاز ...

وأما صاحب المشروع فهو بول فريدمان . وهو يهودي ألماني عتيق من مدينة كونيكسبرغ، زعم أنه اعتنق المسيحية البروتستانية وتعمد في الكنيسة . ولكن يهوديته بقيت تحت جلده، ووراء الصدر والروح . وأما المشروع فكان أحد الأحلام الصهيونية ... قبل أن تخلق الصهيونية . وقلما يذكره أحد إلَّا الباحثون في الجذور والمتخصصون المتخصصون ...

كان فريدمان عازباً . وعلى شيء من الثراء سمح له بالرحلة والأسفار

والإحسان . والقيام ببعض ما سماه بالأبحاث التاريخية في فيينا وباريس ولندن ... ونشر بعض الكتب . ومنذ وقع الرجل على كتابي بورتون حسب أنه وقع على هدف لحياته . كانت المغامرات الفردية للاستعماريين هي « موضة العصر » وغرق فريدمان إلى الأذقان في المغامرة المستحيلة ...

يبلور ، ويخطط ، ويقتنع ، ويقنع .

كانت أرض مدين ، في تلك الأيام قبل قرن ونيف ، تابعة للإدارة المصرية أي تحت أيدي ونفوذ الإنكليز الذين احتلوا مصر سنة ١٨٨٢ . لهذا زين فريدمان مشروعه أولاً للجمعيات اليهودية في أوربا . ثم جاء مصر يبحث مع السلطات فيها المشروع . ويزور خلال ذلك أرض مدين . ويخرج منها بثمانية صناديق ملأى بحجارة الفيروز والذهب والمعادن ، وبكراس دعائي طبعه سنة ١٨٩١ في برلين بعنوان « أرض مدين » . وصف فيه المنطقة وأهم ما ذكره عنها أنها أرض الغنى المعدني !... وأنه ليس فيها من السكان سوى ٢٣ ألف نسمة !! وزعم أن سكان العقبة ما هم سوى عشيرة بني سبتي اليهودية وأن المنطقة كانت جزءاً من أملاك سليمان !!

وذهب إلى اللورد كرومر ، في لندن وهو الذي كان المندوب السامي الإنكليزي بمصر ، وملكها غير المتوج قرابة ربع قرن (ما بين سنتي ١٨٨٣ و ١٩٠٧) ، وإلى وزارة الخارجية البريطانية ، يطلب تأييد المشروع . ويتحدث عن قوة مسلحة يهودية من ٣٠٠ رجل لإرهاب البدو . وعن بناء خط حديدي من البحر المتوسط ... يفتح الطريق للهند !

ونقل فريدمان مشروعه إلى التنفيذ . استأجر عدداً من الضباط الألمان وذهب إلى روسيا فجند بعض اليهود ودربهم في ألمانيا ليكونوا نواة جيش الغزو . كما جند بالتعاقد عدداً من المهنيين والصناع . العقد كان أشبه بالتطوع في الخدمة العسكرية : العمل والإطاعة المطلقة للأوامر !...

لم ينس فريدمان أن يشتري أيضاً كميات كبيرة من الأسلحة والذخائر

وبعض الحاجات التي يغري بها البدو، واستأجر عدداً من اليهود الذين يتكلمون العربية. واشترى يختاً سماه إسرائيل. وأبحر من إنكلترا يرفع العلم النمسوي !!...

عبر اليخت قناة السويس ونزل على شواطئ مدين. وأقام المعسكر الذي كان يأمل أن يكون أول مدينة !.. بعد ذلك بدأت المشاكل. النظام العسكري الروسي الذي فرضه فريدمان لم يكن يتفق مع متطوعين لا يحملون للمغامرة الغريبة الحماسة المهووسة التي يحملها صاحبها. والمنطقة نفسها صحراوية صخور جرداء سوداء ورمال تأكل الأرجل والعيون، ورطوبة ... وغذاء محدود ! رفض بعض المتطوعين الطعام السيئ فطردهم فريدمان من المعسكر. ووجدوا أنفسهم يضلون في الصحراء. ويموت بعضهم من الإنهاك !... ولكن التمرد استمر وتزايد حتى شمل الجميع. وعند ذلك ...

ارتدى فريدمان البزة العسكرية ووضع على رأسه تاجاً مذهباً وزين صدره بالأوسمة. وخرج لجماعته، وقد قبض بيمناه على مسدس، وأرخى اليسرى على السيف وأعلن تسريح المتطوعين جميعاً !... كان كما قال يمثل دور ملك اليهود في مدين !

فشلت المغامرة إذن. ولكن هل انتهت عند هذا الحد ؟

لقد حاول ملك اليهود الجديد تجنيد بعض يهود مصر. واستئجار بعض المقاتلين من السودان. ولكن المشاكل السياسية، في هذه المرة، هي التي جاءت. ما كان للمغامرة أن تصل هذا الحد دون أن تثير قلق الدولة العثمانية. وحين عرف سلطانها بالمشروع والجنود والأسلحة على السفينة، انتظرت أن يكون الأمر مغامرة إنكليزية جديدة فأثارت كل المشاكل الدبلوماسية. وبعثت إلى حامياتها، على طريق الشام ــ المدينة، بالإمدادات والتعليمات لضرب كل تحرك. وفشل فريدمان في حمل البدو أو المرتزقة على محاربة الأتراك ... فاضطر لأن يقوض معسكره ويركب البحر ...

هل هذا كل شيء؟ كان فريدمان من الصفاقة بحيث أقام الدعوى على الحكومة المصرية يطالبها بالتعويض عليه. وعلى الصحف لأنها شوهت سمعته، وعلى اليهود الآخرين الذين وصفوا مغامرته بأنها سيئة التخطيط والتنفيذ. وقد حملت بها مخيلة يهودي اندماجي... (أي يريد الاندماج بغير اليهود) يهودي قَبِلَ أن يتعمد. واعتبر نفسه ملكاً وباشا، ويريد أن يتزعم اليهود!!

بقي أن نعلم أن هذه المغامرة المنسية كانت على صلة مباشرة بهرتزل، صاحب الصهيونية وكانت التمهيد السابق لحركته!...

أليس في هذا من بلاغ؟

« رجال الله »

قال تعالى :

﴿ من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عيه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلاً ... ﴾ .

عن بعض رجال الله هؤلاء حديث اليوم ... وبعضهم شبع إهمالاً ونسياناً. هل نقصد إلى الدخول على أحد الزهاد في معتكفه النائي ؟ أم هو أحد المجاهدين نركض مع سنابك مهره حيث حط المهر السنابك ؟، أم هو أحد أصحاب الكرامات نتلمس البركة من شباكه ؟... لا هذا ولا أولئك ... وإنما نحاول أن نذكر في غمرة أيام الروح هذه ببعض من حملوا دين الله نوراً على نور إلى مناطق الظلمات . بعض من مدوا جسومهم جسوراً يعبر عليها الإسلام إلى مناطق ما ضرب إليها مجداف من قبل ؟ من أضافوا إلى الجماعة المؤمنة أضعاف عددها عدداً ، على الصمت والاحتساب ...

﴿ وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين ﴾ !

لقد اعتدنا ، إذا ما وصل الحديث انتشار الإسلام ونصره ، أو صعد الخطيب المنبر يتكلم في كبار الرجال وأعمالهم ، أو التقط كاتب مثلاً يضربه للجهاد والإخلاص في الدين ... اعتدنا أن نقف عند القرن الأول من تاريخ الإسلام . لا نكاد نفارقه :

وقف الهوى بي حيث أنت فليس لي متقدم عنه ولا متأخر !

جاذبية ذلك العصر . قوته . أحداثه الآسرة ، هبة رجاله بركاناً من الشرر والفداء أسماؤه التي يكاد بعضها يصل في نفوسنا دنيا التقديس والعصمة ، كل

ذلك يجمد أنظارنا عنده ... بأسرها . يلغى أي وجود تاريخي آخر إلاه ... هذا إن لم يصبح كل عصر بعده عصر انحطاط وضلال وفساد في الدين . على أننا سنخرج من دائرة الضوء الكبرى هذه إلى المنسيين الآخرين. إلى بعض المنسيين فإنهم لا يحصون عدداً . ولا ينتقص من قيمة العصر الإسلامي الأول ، ولعله يزيد من تلك القيمة ، إن قلنا أنه قد وجد في كل العصور التالية من الإسلام رجال « صدقوا ما عاهدوا الله عليه » . وقد وجد من يحمل الرسالة ... لا أصدق ولا أخلص !

ولن نختار الأقربين . سوف نذهب وراء هؤلاء المنسيين إلى أقصى الأرض — وإلى مجاهل التاريخ ...

في أقصى المعمور إلى الشرق ثمة ما بين الفيلبين إلى سومطرة آلاف بعد آلاف من الجزائر . كبرى وصغرى وبين وبين . تنتثر بالخضرة والغابات الاستوائية على زرقة الجلد ، وتجرح لا نهائية المحيط الهادي !... في هذه الجزر يعيش ما يبلغ خمس المسلمين في العالم كله . فيها أكثر من سكان الوطن العربي كله من أهل الإسلام . أهل أندونيسيا يفخرون — ولهم الحق — بأنهم من أكبر الأمم الإسلامية في العالم عدداً . في جزر أندونيسيا الثلاثة آلاف هناك أكثر من ١٥٠ مليون مسلم ... ترى من هم أولئك الذين كانوا المشاعل الأولى ؟ إنهم كثيرون كثيرون ومنسيون ...

عفو الخاطر ، نلتقط من إحدى تلك الجزر الطافية : من سومطرة بعض الأسماء والأحداث :

هذه هي إحدى الجزر المسلمة في أندونيسيا . فيها أكثر من ٢٥ مليون مسلم ، يعيشون في نصف مليون كم٢ من الغابات والمزارع والبراكين والشواطئ والمطر ... ولم يصل هذا البلد فاتح . ولا سنابك تحمل الفرسان . وحده وصل القرآن الكريم .ولكن متى ؟ ومن ذا الذي حمله ؟ ما من أحد يعرف ! عدة قرون تمر على وصول الإسلام إلى سومطرة ، قبل أن يلتقط التاريخ حادثة منه ، أو

اسماً من الأسماء. أول اسم يذكرونه في هذا المجال بين الشك واليقين هو اسم رجل عربي. هل مرَّ بك يوماً اسم عبد الله عارف؟ لقد وصل الجزيرة فيما يقولون منذ ثمانية قرون... ولكنا لا نعرف كم عانى مع الهندوكية المستقرة هناك وماذا لقي من العنت والعذاب في مدينة آتجيه في أقصى الشمال الغربي من الجزيرة ولا كيف استطاع تلميذه علاء الدين حمل الشعلة من بعده في الساحل الغربي، هرباً من ضغط الهندوك...

وتمضي خمسون سنة بعد ذلك. وإذا ببعض المؤرخين من المناطق المجاورة يتحدثون عن ظهور ملك مسلم، هناك في الشمال الغربي من الجزيرة. يذكرون أنه مجهول أجنبي جاء من العرب، أي من بلاد العرب. ولعله كان من التجار الفقهاء. وعمل في الدعوة للعقيدة الإسلامية حتى دخل الناس في دين الله أفواجاً. وتزوج من أهل البلاد. ونظم أمر الجماعة المؤمنة الجديدة حتى انفصلت تماماً عن الحكم الهندوكي فنصبوه ملكاً حوالي سنة ١٢٠٠م أي بعد موت صلاح الدين الأيوبي في الشام بحوالي عشر سنوات. واتخذ اسم جيهان شاه (ملك العالم). وتلقب بلقب (تختلط في لفظه السنسكريتية بالعربية: سرى بدوكا سلطان. وأسس أول أسرة إسلامية حاكمة، في ذلك البحر من الجزر الخضراء هناك!... ولم تلتقط شبكة التاريخ خبراً آخر عن ذلك الرجل المجهول: من هو؟ ولا عن تلك الأسرة التي قامت في أقصى الأرض من كانت؟ وإلى متى استمرت؟... كل ذلك قد غاب في الظلمات والمجهول... لكن ماركو بولو حين زار الجزيرة بعد حوالي ثمانين سنة من أيام جهان شاه سجل أن الإسلام منتشر في المدن. وأن تجار العرب المترددون باستمرار على الجزيرة قد نشروه. وأن المرتفعات ذات البراكين والأدغال تمتلئ بالوثنيين المتوحشين الذين يأكلون حتى لحوم البشر!...

ولم تمض سنوات على مغادرة ماركو بولو الجزيرة حتى نسمع عن جماعة مجهولة من الشيوخ يتزعمها رجل يدعى الشيخ اسماعيل... قد نزلت شاطئ

سومطرة ، في بلدة باسوري تقول إنها موفدة من شريف مكة ... لهداية الناس إلى الإسلام . كانت الخلافة العباسية في ذلك الوقت قد ذبحت في بغداد وعلى يد المغول قبل خمسين سنة !...

وخاضت الجماعة البلاد : غابة ومستنقعاً وبركاناً ومزرعة شاي . صارت القوة الأولى في البلاد . حتى دخل في الدين ملك مدينة سمدرة هناك . واتخذ لنفسه اسم الملك الصالح ... تماماً كألقاب الأيوبيين في الشام ... والمسيرة بين البلدين ستة أشهر في البر والبحر ... ولسنا ندري من هو هذا الملك الصالح الذي أسس السلالة الإسلامية هناك . ابن بطوطة حين وصل هناك بعد سنوات وجد فيها ملكاً يدعونه الملك الظاهر . يركب الأفيال وترقص الخيل بين يديه . وهو من فضلاء الملوك وكرمائهم ــ كما يقول ــ ، شافعي المذهب ، محب للفقهاء يحضرون مجلسه للقراءة والمذاكرة . وهو كثير الجهاد والغزو . ومتواضع يأتي إلى صلاة الجمعة ماشياً على قدميه . وأهل بلاده شافعية ، محبون للجهاد . يخرجون معه تطوعاً وهم غالبون على من يليهم من الكفار . والكفار يعطونهم الجزية على الصلح ...

وتمضي قرون تحتل خلالها هولاندا كل تلك البلاد ... جماعة « الحاجي » أي الحجاج الذين تفقهوا في الدين هم الذين حملوا العبء في العمل لله هناك ، على الصمت ... وتفاجأ هولاندا في مطالع القرن الماضي بظهور نهضة دينية إسلامية عارمة في سومطرة . من هم زعماء هذه النهضة ؟... هم أيضاً وأيضاً ثلاثة من « الحاجي » المجهولون عادوا من مكة بعد أن تأثروا أعمق التأثر بحركة التوحيد التي قادها في نجد قبل ذلك بقليل محمد بن عبد الوهاب . وإذا بهم .. يقودون حركة من مثلها في بلادهم ، للعودة إلى الصفاء ، وإلى سبيل السلف في الدين والعمل . وحرموا التوسل بالأولياء والميسر والخرافة ، وكسروا آنية الخمر ... هؤلاء هم الذين حملوا هناك اسم جماعة البادري . وحرضت عليهم هولاندا شعوب البتك الهندوكية ، فأدخلت الطرفين في حرب وحشية وحشية عشرين

سنة ثم دخلت هولاندا نفسها في حربهم سبع عشرة سنة حتى سحقتهم سحقاً ... كان ذلك منذ مائة وخمسين سنة ...

في خضم الظلمات والمجهول يقبع كل ذلك التاريخ . ومن مثله كثير في كل بقعة من بقاع الإسلام وفي كل جزيرة ... في خضم النسيان ضاع وضاع رجاله كالشهب العابرة ، لا ينتظرون من أحد جزاء ، ولا من دولة قوة أو عوناً . أما قال تعالى : ﴿ من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلاً ... ﴾ .

«حول صلاح الدين»

صلاح الدين... اسم كالنجم يرف في التاريخ الإسلامي. القوافي تستلهمه، الجهاد منذ ثمانية قرون يغني باسمه. الجراح على الكبرياء تنتظر أطياف مهوره المسحورة!

من ذا الذي يجهل صلاح الدين؟

ومع ذلك... فهل يحسب أحد أن صلاح الدين كان زهرة في صحراء؟ عملاقاً متنمراً في قطيع من النمل؟ ذلك التمثال الضخم بعرض الآفاق السبعة للبطولة، للفروسية، للنصر، هل كان يقف وحده، كالقمم المهجورة؟ هل كان عاصفة... فقأت عين المجد وحدها، ثم غابت على المعراج الأخضر؟

لو فتشت، وفتشت حوله، لوجدت أنه نسيج من آلاف البطولات الصغرى. لوجدت أنه أمة كاملة كانت تعمل وتصنع البطولة الكبرى... أن تحت عباءته السابغة ألف صلاح الدين منسي!... المنسيون في الظل قبائل، جموع أشتات. «عصائب طير تهتدي بعصائب!...».

أأحدثكم حديث بعض المنسيين من هؤلاء؟... من معركة واحدة، من معركة عكا التي دامت ثلاث سنوات ما بين سنة ٥٨٥ وسنة ٥٨٧ هـ إنها مفعمة حتى الحلقوم بالعلقم. والمسلمون في عكا محاصرون يدافعون عنها. والفرنج يضربون عليهم أعنف الحصار، في البر وفي البحر. وليس في يد صلاح الدين دفع الحصار...

من تلك المعركة يحكون حكاية (عيسى العوام). يقول المؤرخ القديم:

«كان يقال له عيسى وكان يدخل إلى البلد بالكتب والنفقات على وسطه ليلاً على غرة من العدو . وكان يغوص ويخرج من الجانب الآخر من مراكب العدو ! » ...

(فعل ذلك مرات) وكان ذات ليلة شد على وسطه ثلاثة أكياس فيها ألف دينار وكتب للعسكر . وعام في البحر فجرى عليه ما أهلكه ، ولما كان بعد أيام بينما الناس على طرف البحر في البلد ، وإذا بالبحر قد قذف إليهم ميتاً غريقاً فافتقدوه فوجدوه عيسى العوام . ووجدوا على وسطه الذهب وشمع الكتب . وكان الذهب نفقة للمجاهدين . فما رؤى من أدى الأمانة في حال حياته . وقد أداها بعد وفاته إلَّا هذا الرجل ... هذا واحد من المنسيين !

ومن تلك المعركة ذاتها يحكون حكاية البطستين ، والبطسة هي السفينة الضخمة لنقل المؤن والجند . ولها عدة طوابق : أعدت الأولى في بيروت لنجدة عكا بالطعام والميرة . أودعت أربع مائة غرارة من القمح ووضع فيها من الجبن والميرة والبصل والغنم وغير ذلك .

يقول المؤرخ القديم : وركب في السفينة جماعة من المسلمين وتزيوا بزي الفرنج حتى حلقوا لحاهم . ووضعوا الخنازير على سطحها بحيث ترى من بعد . وعلقوا الصلبان . وجاؤوا قاصدين عكا حتى خالطوا مراكب العدو فخرجوا إليهم واعترضوهم في الحراقات وقالوا : نراكم قاصدين عكا قالوا : ألم تأخذوها بعد ؟ قالوا لا ! قالوا إذن نرد القلوع ولكن أنذروا تلك السفينة الأخرى القادمة وراءنا أيضاً . وكان وراءهم سفينة فرنجية فلما قصدها الفرنج اشتدت السفينة الإسلامية في السير حتى دخلت المينا !...

وأما السفينة الأخرى فكان مصيرها مختلفاً . كانت عظيمة هائلة شحنت بالآلات والأسلحة والمير والرجال المقاتلة . كان عليها ست مائة وخمسين رجلاً . فاعترضها الفرنج في عدة سفن تبلغ أربعين شراعاً . فلما أحاطوا بها وشدوا في قتالها . ووقفت الريح . صبر المسلمون للقتال حتى قتلوا

منهم الخلق الكثير . وأحرقوا على العدو سفينة كبيرة فيها خلق فهلكوا عن آخرهم . لكنهم تكاثروا في النهاية على السفينة الإسلامية . وكان مقدمها اسمه يعقوب الحلبي من الشجعان المجربين في الحرب . فلما رأى أنه لا بد مغلوب قال : والله لا نقبل إلّا عن عز . ولا نسلم إليهم من هذه السفينة شيئاً . فوقعوا في السفينة من جوانبها بالمعاول يهدمونها ولم يزالوا كذلك حتى فتحوها من كل جانب أبواباً فامتلأت ماء وغرق جميع من فيها من الآلات والمير وغير ذلك ولم يظفر منها العدو بشيء ...

ومن تلك المعركة ذاتها معركة عكا يحكون حكاية المجاهد الدمشقي المجهول : المؤرخ القديم روى حكايته على الشكل الآتي : « كان الفرنج قد عملوا مدة مقامهم على عكا ثلاثة أبراج من الخشب عالية جداً . طول كل برج منها في السماء ستون ذراعاً . وعملوا كل برج منها خمس طبقات . كل طبقة مملوءة بالمقاتلة وقد جمعوا أخشابها من الجزائر (يقصد أوربا) وغشوها بالجلود والخل والطين والأدوية التي تمنع من إحراقها . وأصلحوا الطرق لها . وقدموها نحو مدينة عكا من ثلاث جهات . وزحفوا بها . فأشرفت على السور فأشرف البلد أن يملك عنوة وقهراً ! ... دام القتال ثمانية أيام متتابعة ليلاً ونهاراً والمسلمون قد تيقنوا من استيلاء الفرنج على البلد . فإنهم لم يتركوا حيلة إلّا وعملوها في دفع الأبراج . فلم يفد ذلك . وتابعوا رمي النفط الطيار فلم يؤثر فيها ... فلما أيقنوا بالبوار أتاهم الله بنصر من عنده : وكان سبب ذلك أن إنساناً (مجهولاً) من أهل دمشق كان مولعاً بجمع آلات النفاطين وتحصيل عقاقير تقوي عمل النار ، كان بعكا لأمر يريده الله . فلما رأى الأبراج قد نصبت شرع في عمل ما يعرفه من الأدوية المقوية للنار بحيث لا يمنعها شيء من الطين والخل وغيرهما . فلما فرغ منها حضر عند الأمير بهاء الدين قراقوش ، وهو متولي الأمور بعكا والحاكم فيها ، وقال له : تأمر المنجنيقي أن يرمي ما أعطته المنجنيق المحاذي لبرج من هذه الأبراج حتى أحرقه ! ...

ويضيف المؤرخ قوله : « وكان عند قراقوش من الغيظ والخوف على البلد ومن فيه ما يكاد يقتله . فازداد غيظاً وحرد عليه . وقال : أهل الصناعة في الرمي بالنفط قد بالغوا فلم يفلحوا . فقال له بعض من حضر : لا يضرنا أن نوافقه . ولعل الله تعالى قد جعل الفرج على يديه . فرمى عدة قدور نفطاً وأدوية ليس فيها نار . فكان الفرنج إذا رأوا القدر لا يحرق شيئاً يصيحون ويرقصون ويلعبون على سطح البرج . حتى إذا علم أن الذي ألقاه قد تمكن من البرج ألقى قدراً مملوءة وجعل فيها النار فاشتعل البرج . وألقى قدراً ثانية وثالثة فاضطرمت فيه فأعجلت من في طبقاته الخمس عن الهرب والخلاص فاحترق بمن فيه . وعجل الله لهم النار في الدنيا قبل الآخرة ... وانتقل إلى البرج الثاني فإذا الذين فيه قد هربوا فأحرقه ... وكذلك فعل بالثالث .

ويضيف المؤرخ : وحمل ذلك الرجل إلى صلاح الدين . فبذل له الأموال الجزيلة والأقطاع الكثير فلم يقبل منه الحبة الفرد . وقال : إنما عملته لله تعالى ولا أريد الجزاء إلّا منه ...

هل عرفت الآن أن رداء صلاح الدين الأرجواني الذي يسافر فيه على خواطرنا عبر العصور ، إنما صنع بالإبر وذوب العيون كبعض نسيج الأوبيسون بكل الأيدي التي حوله ... بجماهير بعد جماهير من المنسيين ؟

«أسيران تدين لهما الإنسانية»

قبل حوالي إثني عشر قرناً وبعض القرن ...

وعلى التحديد في سنة ١٣٤ هـ/٧٥٢ بعد قيام الدولة العباسية بسنتين وصل إلى أبي مسلم الخراساني ، وهو في خراسان ، أن جيشاً صينياً يتقدم من الشرق نحو الأراضي الإسلامية ! كانت الخلافات بين الأمراء المحليين من الترك فيما وراء النهر ، في مناطق سمرقند وطشقند وبخاري قد ورطت الحدود الإسلامية بالصدام مع الصين . وقد استنجد بعض الأمراء بالقوى الصينية . فلما غدرت به استنجد ابنه ضدها بالقوى الإسلامية ... فكان لا بد من الصدام !

ما كانت القضية قضية أهواء وزحام نفوذ. ما كان للمسلمين أن يتدخلوا لولا أن القضية تتعلق بالسيطرة على طريق التجارة البرية الأعظم «طريق الحرير» كما كانوا يسمونه ، والذي يمر بتلك البلاد ، والذي يريد الصينيون أن يبقى تحت أيديهم !... وهو عنق الحياة الاقتصادية وشريان التجارة والمال . وأرسل أبو مسلم إلى الحدود بالقائد العربي زياد بن صالح الخزاعي الذي اشتبك مع الجيش الصيني في معركة من معارك التاريخ الفاصلة انتهت بقتل القائد الصيني كاو /هسين/ تشي مع ٤٥ ألفاً أو خمسين ألفاً من جنده على ما تقول المصادر العربية . التي تستعير حجم النصر فتسبغه على عدد القتلى !...

كل هذا معروف وليس من منسيات التاريخ ... المنسي هنا هو فقط أمر آخر : مختلف تماماً : شخصان ليسا من القواد ، ولكن من الجند . وليسا من

أبطال المعركة ولكن من الأسرى العاديين الذين وقعوا بأيدي المسلمين من جند الصين . . .

هما أسيران نجهل أسماءهما ، والهوية ، وقصة الحياة ، والأسر . ومع ذلك فأنا وأنت والفكر الإنساني كله يدين لهما ، منذ إثني عشر قرناً وإلى الأبد ، بأعظم الدين . . .

لعل ركب الحضارة العربية الإسلامية نفسه كان تأخر قروناً لولاهما وركب الحضارة الإنسانية كلها أيضاً بدوره كان تأخر ! . . .

إن أردت أن تعرف هذا الدين فانظر بين يديك إلى الصحيفة التي تشتري كل يوم ، وإلى الكتاب الذي تقرأ ، والرسالة الناعمة التي ترسل لمن تحب ، والتراث الذي ينتقل في الناس من جيل إلى جيل . وقل لي : ما وسيلته الكبرى ؟ الكتابة اخترعها الإنسان منذ أكثر من خمسة آلاف سنة . أما المادة التي يكتب عليها ، فمتى صارت بين يديه هينة لينة رخيصة سهلة ؟ كتب على الحجر وعلى الطين . ثم على الجلد والخشب والعظم . . . وعلى المنسوجات الحريرية وغيرها وكان آخر ما ابتكره صناعة البردى ! . . . هذه القراطيس والرقاع الصغيرة التي كانت تصنع في مصر من جذوع النباتات النيلية ، فتسطح بعضها إلى جانب بعض طولاً وعرضاً . وتلصق . وتضغط . لتصبح رقعة كتابة . . . العالم كله كان يعتمد هذه الرقاع المصرية . وينتظر وصول رزمها مع التجار ليكتب عليها ما يريد . . .

بلى ! قبل ظهور الإسلام بأكثر من أربعة قرون وردت من الصين رقاع أخرى أرق وأنعم وأوسع وأكثر قابلية للطي والنشر . ولكنها غالية الثمن ثم . . أين الصين ؟ وكيف انتظار وصول الرقاع منها ؟ وسر هذه الرقاع التي يسمونها الكاغد ما هو ؟ إنه مع سر الحرير منجم الذهب للصين في التجارة . وكيف يكشفون السر ويخسرون المنجم ؟ وإذا انكشف سر الحرير في القرن السادس للميلاد ، قبل الإسلام بقرن واحد . وأقبلت منطقة البحر الأبيض المتوسط على

تربية دود القز ونسج الحرير ، فقد بقي سر الرقاع الناعمة من أسرار الصين ... مدير مصنع السلاح الإمبراطوري تساي لون كان قد ابتكر السر سنة ١٠٠ للميلاد . صنع الكاغد من عجينة جمع فيها قشر القنب ولحاء الشجر وبقايا الخرق وشباك الصيادين . وبقي الأمر من أسرار الصناعات الإمبراطورية . بقي من الأسرار حتى تلك المعركة التي تحدثنا عنها . وحتى وقع الأسيران المجهولان في سوق النخاسة ... كان من المألوف يومذاك لأصحاب العبيد أن يطلقوهم للعمل ، وأن يتقاضوهم على عملهم اليومي مبلغاً يجري الاتفاق عليه حسب المهنة (أو المهن) التي يتقنها العبد المملوك ...

التاجر الذي اشترى الأسيرين الصينيين في سوق سمرقند بالتركستان سألهما عن المهن التي يعرفان فذكرا أنهما يعملان بالكاغد . لم يدرك صاحب الأسيرين المجهول ، ولا أدرك الأسيران المنسيان نفسهما أن الفكر الإنساني بعد هذا الحوار من كلمتين قد أخذ مساراً آخر . وجد أخيراً الأداة السهلة اللينة الرخيصة المبذولة لكي ينتشر ويكون في متناول كل إنسان .

وحين أقام صاحب الأسيرين أول مصنع للورق في الأرض الإسلامية في سمرقند وبدأ الإنتاج والبيع ، لم يكن ممكناً أن يظل السر سراً على الناس ... وطار السر بسرعة إلى بغداد . فظهرت مصانع الورق فيها حتى أزاحت الرقوق من الدواوين ليحل الورق محلها ، أيام البرامكة ... وخرج السر إلى الشام فقامت مصانعه في دمشق ، وطبرية ، وطرابلس ثم إلى تهامة . ثم دخلت الصناعة مصر لتنافس صناعة البردي ثم لتقضي بالتدريج عليها نهائياً ؟...

وما لبثت الأيدي العربية أن صنعت الورق في الأندلس وصقلية . كانت حاجة الفكر العربي النامي تفرض تكاثر مصانع الورق بكل مكان ... كما كان تكاثر الورق دعوة لكل العقول كي تعمل وتنتج ، وتكون مطمئنة إلى بقاء ذلك الإنتاج في التراث الإنساني !

أول مصانع الورق التي ظهرت في أوربا بعد ذلك إنما قامت في إيطاليا

سنة ١٣٤٠ أي بعد ٥٥٠ سنة من قيامها في أرض الحضارة العربية الإسلامية. وكان المصنع الثاني في ألمانيا بعد خمسين سنة أخرى، أقامه أحد تجار التوابل والزعفران المتعاملين مع الأندلس. أمن الضروري بعد هذا أن نضيف أنه لولا انتشار الورق لم يستطع غوتنبرغ أن يبتكر الطباعة!

هما أسيران مجهولان وقفا على العدوة بين عصر ما قبل الورق، وعصر ما بعده. وزودا الفكر الإنساني بأداته الأساسية للانتشار الأوسع... ولكن الورق بقي للناس! أما هما فغاصا في الضياع، في بحر النسيان العميق...

شريك كولومبوس

كلنا مجمعون على أن كريستوف كولومب هو المكتشف سنة ١٤٩٢ لأمريكا. ولو أنها سميت بغير اسمه ـــ نعلم ذلك لأطفالنا! فما رأيك لو أني جزمت بوجود شخص آخر مع كولومب يشاركه هذا الاكتشاف العظيم ولا يذكره أحد. وغرق في النسيان ليحمل كولومب وحده تاج الغار؟ إذن فاستمع هذه القصة!

إنها ليست قصة المغررين من العرب. ولا حديث أهل النـروج أو الدانمرك الذين يصرون على أنهم مكتشفو أمريكا. ولا الفايكنغ أيضاً. إنها قصة رجل رافق كولومب قائداً بحاراً منذ بدء المشروع حتى نهايته... لكن من ذا الذي يعرف اسم الونزو مارتن بنزون؟ أو دوره. لقد شغلت قضيتهُ المحاكم البرتغالية عشرين سنة. ولكنه مات قبل أن يعرف عنها بوقت طويل. ثم ماتت القضية من بعده.

مارتن بنزون بحار محنك ذو سمعة ونفوذ بين مغامري البحر. وهو عالم جيد بالبحار والأرض. درس عن هذه وتلك الكثير في المكتبة البابوية في روما لدى إينوسست الثامن. وكان يستعد للقيام برحلة إلى الغرب في محيط الظلمات أو ما كان يعرف في ذلك الوقت قبل خمسمائة سنة ببحر الظلمات، حين التقى في دير رابيدا قرب مدينة ولبة مع كريستوف كولومب وابنه الطفل ذي السنوات الخمس. كان الدير أبيض كله لكن رهبانه بالأرواب السوداء كانوا مغرمين بالليل. محبين لعلم الفلك يكتشفون ما في السماء. ويتتبعون أخبار المبحرين في الأرض إلى ما وراء رأس الرجاء الصالح بجنوب إفريقية.

كان اللقاء سنة ١٤٨٥ بين الاثنين . كولومبوس مملوء يأساً ـــ لم يتبن أحد تمويل مشروعه أو حتى الاقتناع به ـــ وبنزون يعد سفينتين على حسابه للمشروع نفسه . وسعى أحد الرهبان بين الاثنين للقيام المشترك به ولكن من ذا الذي يموله؟ ليس إلّا ملك إسبانيا لكن هذا الملك كانت تقاسمه السلطة ملكتها إيزابيل ملكة قشتالة زوجته ، فهو لم يكن أكثر من ملك منطقة آرغوان .

على أي حال فإن الملك الإسباني رغم غناه لم يقتنع بهذه المغامرة ، ولا دفع الحماس الديني زوجته لقبولها رغبةً في كسب مسيحيين جدد إلى دينها ... وقد أحالا المشروع إلى لجنة علمية فرفضته اللجنة .

وكاد اليأس يقنع كولومبوس بالبحث عن مستقبل آخر لكن بنزون أقنعه أن لديه خرائط ومعلومات ورثها عن بحار آخر بأن هناك في أقصى الغرب وراء المحيط جزراً هامة . وأن المحيط لا ينتهي كما يتصور الأكثرون بشلال هائل سحيق بلا قاع فيه الجان والعفاريت والنيران الهائلة وأنواع التنين !

وحين عاد كولومبوس يطلب لقاء الملكة لم ترفضه . لكنها ترددت قبل القبول . وإنما قبلت لأنها لن تخسر الكثير. ثلاث سفن فقط ! وسوف تضع عليها على أي حال بعض البحارة من الأسرى المحكومين بالموت . وفيهم عدد من المسلمين . وعاد كولومبوس بالخبر المفرح إلى بنزون الذي كان عليه أن يدير كل شيء بعلمه وبمهارته في الملاحة وبسمعته ! وتهيأت ثلاث سفن (بنتا) و (نينا) وتقل كل منهما ٢٤ و ٢٦ ملاحاً و (سانتا ماريا) التي يبحر عليها أربعون . مجموع البعثة كان ٩٠ رجلاً ما نزال نعرف أسماءهم . وقد جند معظمهم بنزون بسمعته الشهيرة في البحار فما كان أحد يثق بكولومبوس ليقوم بهذه المغامرة معه ! وإذا كان دافع كولومبوس هو الذهب فإن دافع بنزون كانت الريادة والاكتشاف . لقد وظف أموالاً كثيرة في هذه المغامرة مما عزز سمعته وتطوع بعض البحارة في جماعته .

وكان طبيعياً أن يختلف الاثنان . وقد اختلفا بالفعل . واضطرا للوقوف

أمام جزر كناري الإسبانية حيث تدبر بنزون أمر إصلاح دفة السفينة بنتا وصيانة السفن الثلاث وتدبر المؤن اللازمة .

أما كولومبوس فلم يكن يعرف كل هذه التفاصيل .

واختلفا بعد ذلك ، على معاملة البحارة . بنزون حين أحس بالتذمر من بعض بحارته بعد أسابيع من الإبحار رأى تعليقهم على سواري المراكب مشنوقين . أما كولومبوس فكان يقدر أنه يحتاج كل ملاح من أجل العودة فلا بد من أخذهم باللين والمرونة . أما البحارة فكانوا كلما ازدادوا سيراً ازدادوا قلقاً ورعباً . وصاروا يجاهرون وبعد إلى أين؟ وتصوروا أنفسهم طعاماً سهلاً للتنانين والشلالات الهائلة الهاوية التي تنتظرهم فازدادوا حدة وشراسة . وكان قد مضى عليهم في البحر منذ غادروا جزر كناري حوالي أربعين يوماً حين صاح المراقب في أعلى سفينة بنتا واسمه رودريغز .

ـــ الأرض ! الأرض !.

ويجب ألَّا يخدعنا هذا الاسم الإسباني عن حقيقة الرجل فقد كانوا يبدلون للمسلمين أسماءهم برغمهم . ويبدو أن الرجل كان مسلماً وكان الملك الإسباني قد وعد أول من يرى الأرض بدخل سنوي قدره عشرة آلاف دينار مراكشي ذهبي فحرمه منها كولومبوس وأخذها لنفسه . وحين عادوا عاود رودريغز الالتحاق بأبناء قومه المسلمين يقاتل في صفوفهم بجبال البشرات حتى مات !

لا يهمنا افتراق الرجلين بعد ذلك في اكتشاف الجزر التي عثرا عليها في أطراف ما نسميه اليوم بالبحر الكاريبي . ولا تسميتهم للسكان الأصليين بالهنود الحمر وهم يتصورون أنهم إنما وصلوا الهند . ولا اصطدام السفينة سانتا ماريا الكبرى بالصخور وتركها . ولكن يهمنا سباق الرجلين في العودة بالنبأ العظيم إلى إسبانيا . شعر كولومبوس بالرعب حين سمع باتجاه بنزون إلى الشرق على السفينة نينا فلحق به على السفينة الأخرى بنتا .

سباق العودة اعترضته في منطقة جزر آسور البرتغالية عاصفة فصلت السفينتين. وتابع كولومب سيره. ولم يكن له بد من المرور بها. ولم يكن يريد البوح لأحد بمكان سفره وعودته لما بين الإسبان والبرتغال من التنافس ولكنه على أي حال لم يجد السفينة نينا هناك. وحين دفعت الريح السفينة بنتا إلى شواطئ البرتغال خادع كولومبوس الملك عن نفسه ومهمته. وسار حتى إذا وصل المرفأ الذي يرى منه دير رابيدوس الأبيض وجد بنزون قد سبقه بنصف يوم. وكتب إلى الملك بوصوله! في انتظار الجواب طاف بنزون قليلاً في الشواطئ الإسبانية ولحق به كولومبوس وتصافيا.

لقد ظل كولومبوس رسمياً هو قائد الرحلة.

وحين بعث الملك الإسباني إلى بنزون بالقدوم إليه كانت الحمى قد أخذت منه مأخذها ولست تدري أهي الملاريا أم التيفوئيد ولكنه على أي حال توفي وشيكاً خلال أسبوع أو يزيد قليلاً. وانطفأ اسمه. واستقبل الملك كريستوف كولومب على أنه مكتشف الهند من الغرب.

أبداً ما ذكر أحد اسم بنزون ... إلَّا كولومبوس نفسه حين كان يضطر لذكر اسمه! روى كولومبوس قصة هذه المغامرة. تراها هل كانت مغايرة لو أن كولومبوس هو الذي مات ورواها زميله بنزون؟

ملحمة ... في الثلوج

الحديث عن الثلوج قد يكون له طعم المرطبات الأنيس في الجو الحار وقد يكون بطعم التحدي المؤلم!... حتى الموت في الثلج، قد لا يكون بذي معنى لمن تشويه الشمس ويرهقه اللهيب المبثوث في الهواء! ومع ذلك فالثلوج محرقة كألسنة النار. قاتلة أرأيت افتراس جهنم؟ والمنسي اليوم، نسيه الناس في الثلوج... قبره صحراء من الثلج الأبيض بمساحة القارة الأوربية مرتين. أما اسمه فهو روبير سكوت... المولعون بالقراءة حول المغامرات والمغامرين قد يكون بعضهم عثر بهذا الاسم ذات مرة في بعض القراءات ثم طوى الكتاب. لكن ألا يستحق سكوت أكثر من هذا الذكر الأخرس؟

القصة فصل من أفجع الملاحم البحرية. وقد كانت سنة ١٩١١. في تلك الفترة التي سبقت الحرب العالمية الأولى كانت حمى المجد والاكتشافات والزحام الاستعماري في الأوج. كان القطب الشمالي قد اكتشف قبل ثلاث سنوات. كشفه القومندان بيري. وبقي القطب الجنوبي تحدياً أبيض، يثير شهية المغامرين... سكوت نفسه كان قد حاول مغالبة الثلوج وحرائقها الصحراوية سنة ١٩٠٢ فانهزم. كل ما عرفه أن القطب قارة أصابها الجمد حتى الأعماق فمد أطرافها بعيداً بعيداً في المحيطات التي تطوف بها... وأن ثمة خليجاً قد يفتح الطريق السحري إلى القطب ولكنه ينتهي على مسافة ١٢٨٠ كيلو متراً منه...

في الأسابيع الأخيرة من سنة ١٩١١ كانت سفينة القبطان الإنكليزي سكوت (تييرا نوفا ـــ الأرض الجديدة) تخترق ذلك الخليج، يتكسر أمامها

ومن حولها ماؤه المتجمد صفائح ضخمة كانهيار الصخور، حتى إذا بلغت آخره، وانتصب أمامها الحاجز الأعظم، ذلك الحائط من الصخور والجليد الجمدي الذي يفصل البر القطبي عن البحر، والذي يرتفع ثلاثة آلاف متر، عند أقدامه نزل وسط الجو الأبيض بضعة أشباح ملونة، مع عدد من الكلاب والبغال الصغيرة. كالنمال الصغيرة كانوا: طبيباً وثلاثة بحارة والقبطان سكوت!... وبعض المرافقين. وليس غيرهم إلّا الصمت الرهيب الشامل تحسبه بدوره قد أضحى جزءاً من الصقيع أناخ على الأرض!

مرحلة الصعود انتهت بسلام. وحين وصل الخمسة أعلى الجدار الجبلي الجبار انبسطت أمامهم هضبة لا نهائية من الجليد... محيط أصابته اللعنة فجمد. إذا نظرت حسبت أن الله لم يخلق على الأرض سوى محيط الجليد... لقد تلونها أشعة الشمس الباهتة بالصفرة، بالزرقة، بالحمرة الخفيفة، ولكن البياض هو سيد الكون هناك. أما الحرارة فبين ٢٠ تحت الصفر وبين الأربعين... تحت الصفر أيضاً!... وأمام المغامرين ١٢٨٠ كم لكي يصلوا نقطة القطب ـــ وما القطب؟ نقطة كغيرها في هذه الصحراء البيضاء. ولكنهم سيزرعون فيها العلم الإنكليزي. ثم عليهم ١٢٨٠ كم أخرى للعودة!... وعليهم بين هذا وذاك قطع هذه الصحراء المتجمدة الساحقة الرهبة على الزحافات.

وتجري الكلاب بالزحافات! لا غصن أخضر على الطريق. ولا معالم طريق. لا عصفور يرف بجناحيه. لا صوت، حتى كلاب البعثة خرست. لا شيء إلّا الصمت المطلق... استمر الزحف أسبوعاً أسبوعين... خمسة. عشرة أسابيع. ولكن البعثة فوجئت في اليوم الواحد والسبعين، وهي تقترب من نقطة القطب التي تقصد، بلطخة رمادية تبدو... أهي من صنع التوهم؟ أم هو الهواء الجمدي التف زوبعة متكاثفة... لا! بل هي كتلة ضخمة من الثلج جمعت جمعاً بالمجارف وعلى الكتلة ماذا؟ علم أسود فيه الصليب...

بالخيبة الأمل! إنه علم النروج! إذن فقد سبقهم آموندسن النرويجي

إلى كشف القطب. ترك لهم النرويجي بعض الأدوات، وترك أيضاً لزميله الفاشل، رسالة ترحيب!... ما كان سكوت يجهل المغامرة النرويجية. ولكن لم يكن ينتظر لها أن تنجح. ولم يكن ينتظر لها على الأقل أن تسبقه!.. إن ميدان آموندسن هو القطب الشمالي، فكيف سبقه إلى الجنوب؟ نزع سكوت العلم النرويجي. طواه بعناية في حقيبته ورفع العلم الإنكليزي واصطف مع أصحابه في تحية عسكرية... ولكنها ملأى بالمرارة، وجراح الروح! كان ذلك يوم ١٩ كانون الثاني /يناير/ ١٩١٢... رحلة العودة كانت الرحلة الأقسى. الأمل الذي كان يرقص في الذهاب تبدل فشلاً في الإياب. عادوا مغلوبين. ونقص الطعام. وزاد البرد شدة. البغال الثلاثة عشر التي كانت مع البعثة ماتت كلها. الكلاب الأربعة والثلاثون الصغيرة اضطروا لتركها مع قائدها في مطالع الطريق، لأنها لم تحتمل الصقيع. وكان مع سكوت ثلاث زحافات ذوات محركات وقد تعطلت كلها... لم يبق إذن إلّا ــ العودة على خشبات التزلج وبالزحافة الوحيدة الباقية!..

كان الثلج قد محى الآثار التي تركوها في رحلة الذهاب. وعصف الهواء الصقيعي. عصف. عصف. فلم يقطعوا في خمس ساعات سوى خمسة عشر كيلومتراً... أنى لهم أن يقطعوا الـ ١٢٨٠ كم على هذا المنوال؟ وأين يجدون الدفء الكافي وحرارة الليل تهبط إلى ما دون الأربعين تحت الصفر...

في اليوم السادس بدأ أحد أعضاء البعثة يشعر بتجمد أنفه ويديه. سقطت أظافره. وبدأ الجوع أيضاً. النرويجي أكل بعض كلابه. وهؤلاء ليس لديهم كلاب... وهم يتزلجون في بحر لا نهائي من الجمد يتحول بالعواصف إلى دنيا من القطن الثلجي الذي يسد الآفاق... بعد يومين مات أحد أعضاء البعثة بعد نوبة من الجنون. ثم أصيب طبيب البعثة بالعمى. لم تعد عيناه تريان شيئاً بعد. أحرق الصقيع الأجفان...

بعد ستة وثلاثين يوماً كان أمامهم ثلاثمائة كيلو متر أخرى ليصلوا إلى

المعسكر الذي كانوا تركوه على الطريق !... لم يعد في قواهم فضلة للتقدم ولكن التوقف كان يعني الموت ... كانوا أمام حل وحيد . المسير !

غريزة البقاء أعطتهم قوى فوق البشرية . ولكن عضواً ثالثاً خسر ذراعه . تجمدت . وبعد قليل لم يعد يستطيع استعمال خشبات التزلج ... وأحس أنه عبء على الجماعة . فتسلل في الليل من بينهم ، وهم لا يشعرون . ولم يسمع به أحد من بعد !... كانوا قد أمضوا شهرين في صحراء الثلوج وبقي أمامهم ٨٦ كيلو متراً فقط للوصول إلى المعسكر الخلفي ... يوم أخذتهم العواصف الحادة فألزمتهم على التكوم في خيمتهم الوحيدة أياماً أول الأمر ثم ... إلى الأبد ! صارت هي القبر !

قبل ذلك بأسبوعين كان المعسكر قد أرسل جماعة لملاقاة البعثة !... وكان بين الطرفين عشرون كيلومتراً فقط ، يوم أوقفت العواصف هؤلاء وهؤلاء ... صحيح أن قبر سكوت ومأساة أصحابه اكتشفت بعد ثمانية أشهر من البحث عنهم ولكن الملحمة الثلجية كلها كانت قد غرقت في محيط النسيان !

« الجندي المجهول »

قال صاحبي ، الأستاذ السويسري ، وهو يقود سيارته في الطريق الجبلية المتعرجة كالأفعى السوداء بين الغابات حول جنيف .

ـــ ستلقاك في نهاية الطريق مفاجأة !...

ولم ألق كبير اهتمام لقوله . فقد كانت عيوني تعب من الجمال الفردوسي الذي يدور بي على الجانبين . وكان على جفوني بقايا من سهرة الأمس ، عند البحيرة الجبلية (بلاوسي) الزرقاء... وقد أطلقت فوق سطحها قناديل الشمع الملون وقامت من حولها الأشجار كأنها قوم من العمالقة أحاط ببعض أرض الجن !...

ووقفت السيارة في الغابة وقال صاحبي :

ـــ ألا نتمشى إلى أعلى الوادي ؟...

كان الشجر ينسكب على السفوح حتى القيعان والسهول البعيدة . وأشار إلى موضع من الوادي كانت تخنقه من الجانبين صخور ضخمة عارية تتمرد على بحر الخضرة قال :

ـــ أتدري ما اسم هذا الموضع ؟ إنهم يدعونه باب العرب !...

إذا لم تطالبني بالأسماء ، والأسماء على أي حال مجهولة منسية تماماً ، حدثتك بشيء من أعمال أجدادك هنا في سويسرا . وفي جبال الألب . وأسفل وادي الرون أنتم هنا موجودون ... إلى اليوم ، وفي كثير من المواضع !...

وجمد الجواب على شفتي . كنت في الواقع أجهل الكثير عن الملحمة العربية ـــ السويسرية ـــ الفرنسية . فتركت صاحبي يتكلم . وينظر إلى بين

الفينة والفينة . يرى التاريخ وهو يعبر على صدري كخبب كوكبة من الخيل في غلس الظلام !...

منذ اثني عشر قرناً كانت صيحة الرعب في جنوب فرنسا ، وفي جبال الألب التي تفصلها عن إيطاليا وفي سويسرا : جاء العرب المسلمون !!

ليس ثمة من أسماء معروفة للقواد الفاتحين . ليس من هويات واضحة . ليس من سجل يؤرخ الملحمة التي قادوها عبر الجبال والثلوج . كانوا كواكب لا تنقطع من الفرسان المجهولين ، كأنما هم بدون وجوه . تزحف مهورهم على البطون في مهاوي الأدوية . وتدق بالسنابك أسوار القلاع !... ما بين مارسيليا وجنوه وجنيف ولوزان وبال حتى مدينة إيكس في أعالي حوض الرون . كل ذلك في أيديهم... ما يسمى اليوم بالشاطئ اللازوردي : نيس وسافوا كان بعض ممتلكاتهم . وبحيرة جنيف مرتع لهم وضفاف الرون هي المنتزه .

في العصر الحديث ابتكرت شخصية الجندي ــ المجهول : جثة من ميدان القتال تمثل كل المحاربين . ونحن نقيم لهذا المجهول النصب التذكاري ونحني الرؤوس والأعلام !... هؤلاء المجهولون منكم تركوا لأنفسهم نصباً تذكارية شاهدة ثم راحوا في الغيب !...

آثارهم هي نصبهم التذكارية الذاتية وهي الشاهد الوحيد...

ممرات جبال الألب الشهيرة مثل ممر سان برنارد ، كانت لهم في القرن العاشر . يتقاضون الرسوم فيها على القوافل المارة ، سواء كانت قوافل التجارة أو جموع الحجيج إلى القدس...

وفي سنة ٩٣٦ م كان العرب على بحيرة جنيف . ثم على بحيرة كونستانز في شمال سويسرا وقد هرب رهبان الأديرة هناك إلى إمبراطور ألمانيا يطلبون تعويضهم عن خسائرهم التي خسروا أمام العرب !... حتى الآن ثمة كتابة عربية على كنيسة بطرس في فاليه السويسرية . وهناك مكان في لوزان يسمى برج المسلمين وجسور في فلفسبرغ على اسمهم . وكهف في ديفيليل يحمل

اسم المسلمين . وعلى بعض صخوره أرقام عربية واضحة . وفي مدينة بال ضواحي تحمل الأسماء العربية إلى اليوم !...

وتنتقل إلى الجنوب الفرنسي فتجد حياً في نيس كان يدعى حي المسلمين . وآخر في لاركانتيه يحمل إلى اليوم هذا الاسم . وقلاعاً بعد قلاع مما بنوا . وأربطة بعد أربطة . وبقايا مساجد ، ونقود ، وكتابات قرآنية ، وزجاجيات ، وفخاريات وأبنية ذات أقواس ، وآثار زخرفة قد تهشمت ، وأسوار لم تبلغ بها المعاول الحضيض ...

لقد حاولوا الاستقرار . زرعوا الأرض . تزوجوا من أهل البلاد . قاتلوا للبقاء . بنوا . وبنوا . وبنوا ... ولكن نهاية الملحمة لم تكن كبدايتها !... كانوا قلة في العدد . وليس تكفي الشجاعة ولا العناد مع القلة .

في سنة ٩٥٥ . بعد نصف قرن من المد والفتح انكفأت عليهم القوى في سويسرا . قطعت عليهم ممرات جبال الألب . طوردوا في البلاد لم يفلت منهم إلّا القليل على الدروب . وذهب القتلى هباء . وأما الأسرى فسيقوا إلى دير سان غال مكبلين بالأغلال ... وهناك رفضوا الطعام آثروا الموت من الجوع !... وماتوا من الجوع !

عرب الجنوب الفرنسي كانوا أكثر عدداً . وكانوا يعتصمون (بجبل القلال) هكذا سموا قلعتهم الكبرى هناك . وكان الفرنج يسمونه جبل المسلمين . وكذلك امتد الوجود العربي الإسلامي هناك قرنين . انتهى سنة ٩٧٥ يوم انتهت قلعة جبل القلال بعد حصار دام سنتين ...

أين ذهب الفاتحون ؟... قليل منهم لحق بالبحر . أما الباقون فانتهوا جثثاً ممزقة على السفوح وأطراف القلاع ... أما الأسرى ... الأسرى كان لهم في الجنوب الفرنسي مصير آخر ... منذ أواسط القرن الثامن كان الأسرى المسلمون يساقون إلى معسكرات تجاور المناجم . فالأقوياء لاستخراج المعادن وعلى الأخص الفضة . وبعضهم يقطع الشجر لعمليات الصهر والوقود . وبعض

للعمل الزراعي في الأرض الموحلة ... ونهاية الجميع الموت بالسل والإرهاق !

وفي أواخر ذلك القرن ثار هؤلاء الأسرى مرة واحدة . وفي كل مدن الجنوب . قتلوا الحراس والأسياد . ولكن الثورة سحقت السحق الدموي الذي تصمت عنه التواريخ ... كل الصمت . وظلت المناجم والحقول عدة قرون بعد ذلك تستهلك ، تفترس الأسرى بالأعداد الكافية ، فإن الحروب بين الفرنجة والأندلس ظلت قروناً لا تنقطع .

لم أشعر متى انتهى حديث صاحبي الأستاذ السويسري ؟... فقط كانت عيوني في الأفق تلاحق شبح ذلك المسلم المجهول !

أم الملك

في التاريخ الإسلامي نسوة كثيرات مشهورات. كتبت عنهن معاجم صنفت... أحاديث من الأحاديث صيغت فهل سمعت بينهن باسم صفوة الملك زمرد خاتون؟ إنها ملكة وابنة ملك وأخت ملك وزوجة ملكين — وأم ملكين... وأين دَسْت هؤلاء جميعهم وأين عرشها وعروشهم؟ في دمشق... بلى في دمشق ومنذ حوالي تسعة قرون!... ومع ذلك فقد لفها النسيان هذه الملكة حتى قبل أن تموت!... هل أحدثك الخبر؟

نحن في غمرة الحروب الصليبية!...

كان قد مضى على احتلال الفرنجة للقدس قرابة الأربعين سنة. وكانوا قد أنشأوا الإمارات الغريبة على طول الساحل الشامي يحسبون أنهم قد تملكوه إلى الأبد... وجاء وقت كان السلام فيه بأيديهم. وكانت الحرب أيضاً، وفرض الأتاوات، ودنيا التجارة... كل ما بقي من الشام خارج أيديهم هو ذلك الخط الداخلي من المدن ما بين حلب وحمص ودمشق. كل حركات المقاومة الإسلامية كانت تفشل أمام فرسانهم ذوي السيوف الحديدية الثقيلة، ومدد الرجال والمال الذي كان يأتيهم في البحر من الغرب...

أما أمراء الشام فكانوا أشتاتاً من القوى ﴿تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى...﴾ كل متسلط فرح بالمدينة التي تحت يديه. أقصى أمانيه أن يزول ملك أخيه ليتخلص منه... ولقد يتفق مع الفرنجة ضده. ويهادن الفرنجة ليتفرغ له... فإذا رضي الله عليهم واتفقت كلمة اثنين منهم على الجهاد لم يلبثا بعد المعركة الأولى أن يتفرقا، ويعود أحدهم إلى هدنة الكفار، والآخر إلى الحرد

والانتظار ! وظهر في أفق المقاومة ، بعد خمس وثلاثين سنة نجم جديد اجتذب الأنظار : إنه عماد الدين زنكي ، صاحب الموصل . وضع في همه أمراً واحداً هو : توحيد القوى الإسلامية بأي ثمن . ونجح الرجل في الخطوة الأولى : وحد الموصل مع حلب تحت قيادته . ثم أضاف إلى ذلك حماه وحمص . وبقيت أمامه دمشق .

ولكن دمشق كانت في شغل آخر عن هذا الهدف البعيد !

كان يحكمها منذ مطلع الحروب الصليبية قائد تركي من مماليك السلاجقة . فلما مات حكمها ابنه . ثم أولاد هذا الابن ... أين مكان صفوة الملك زمرد من هذه القصة . كانت زمرد ابنة الملك الذي حكم دمشق قبل الحروب الصليبية . وكان أخوها هو ملك هذا البلد يوم وصل الصليبيون إلى الشام . ثم تزوجت القائد التركي وملكت معه المملكة سنوات !...

فلما مات تسلم الحكم ابنها الأول : إسماعيل .

يوم نصب زنكي شباكه لأخذ دمشق ، يحاصرها تارة ، ويهادنها أخرى ، كان اسماعيل هو الملك !... ومع أنه كان من التعسف والوسواس وسوء الظن والسيرة بحيث كان الحاكم البغيض ، إلّا أن القواد والحاشية وأهل البلد كانوا من قصر النظر ، ومن الخوف على ما بأيديهم من المصالح بحيث فضلوه على زنكي . ووقفوا وراءه ... كانوا مشغولين بالتناهب وبالدسائس الداخلية عن الوحدة ، وعن الجهاد ، وخطر الكفار . وتطورت الأمور في دمشق التطور الغريب ...

جاء إلى الملكة ــ الأم صفوة الملك ، ساع يسعى قال : إن ابنها إسماعيل يستريب في سيرتها . ويتهمها ببعض القواد !! وجن جنون العجوز التي كانت تقارب الستين . بعد أيام وفي قلب قلعة دمشق كانت الأم واقفة في صدر قاعة العرش ومماليكها يمزقون ابنها الملك بالسيوف وهو يصيح :

ــ زنهار ! زنهار ! أمان أمان ...

وهي : وجه كالصخرة قد جمدت عليه كل العواطف .

واستدعت الناس ليروا الجثة . ونصبت للملك ابنها الآخر ... ولكنها أضحت معه الملكة صاحبة الأمر والنهي ... ووقفت تنافح زنكي ، وتدافعه عن البلد .

وخطرت للأتابك زنكي فكرة شيطانية . فلماذا لا يتزوجها ويكسب دمشق؟ كان الزواج السياسي بعض أساليبه . فأرسل يخطبها بالفعل ! وضجت البلد بالخير . وبأن العجوز لم تمانع . ولا مانع أيضاً كبار قواد المملكة في ذلك الزواج ... ولكنهم ما إن جهزوا الملكة وأخرجوها لعريسها المنتظر في ظاهر مدينة حمص حتى أغلقوا أبواب دمشق ... دونه ودونها !

ورأى زنكي أنه لم يظفر من الصفقة بغير العجوز . فأرسلها إلى حلب ... تنتظر !

وهناك بدأت الغرق في هوة السيفان .

قتل ابنها ملك دمشق فتقطعت آخر أسبابها مع دمشق . ثم قتل زوجها زنكي فلم يبق لها مقام في حلب . ولجأت إلى بغداد فلم تجد فيها الترحاب الذي كانت ترجو . فهاجرت إلى المدينة لعلها تجد في جوار القبر النبوي بعض السلوان ...

ومضت الأيام . مضت السنون . وعفا النسيان على كل خبر لهذه المرأة وأولئك الرجال المعدودون الذين شيعوا إلى مقبرة البقيع ، سنة ٥٥٧ جثمان العجوز الفقيرة التي عرفوها تغربل القمح للناس كي تعيش ، وتخدم الناس كي تأكل مع أنها تجاوزت الثمانين نسوها بسرعة . قلائل من أولئك المشيعين المعدودين كانوا يعرفون أنها هي نفسها الملكة زمرد خانون صفوة الملك !! ملكة دمشق !

يبقى أن تعلم أن أمراً واحداً قد أبقى على سطرين من أخبارها في التاريخ ...

هذا الأمر هي أنها كانت قد بنت في دمشق مدرسة للعلم. ووقفت عليها الأوقاف الجزيلة.

هذه المدرسة هي التي حمتها من النسيان المطلق!

« الوثيقة الخضراء »

الوثيقة الخضراء. نوكس دارسي. الكلمتان تتصلان بالتفجرات الأولى للذهب الأسود في الشرق الأوسط كله. ومع ذلك فندر في الشرق الأوسط من يعرف هذه الكلمات الغريبة وإن عرف فهل يتذكر؟

اللهب الأحمر الذي يلون الليل كالشفق في المنطقة كلها. ناقلات النفط تحوم كقبائل النحل في مياه الخليج. مستعمرات النفاطين كأزهار من الفولاذ في الصحراء. الأنابيب شرايين من الشرايين. أنهر المال. زحام الذئاب الدولية... كل ذلك إنما بدأ مع نوكس دارسي المنسي والوثيقة الخضراء التي تنام لا تدري أين من ركام الوثائق البريطانية الرسمية!...

وكان ذلك في سنة ١٩٠٠ وفي بلاط الشاه ناصر الدين، شاه فارس فأما دارسي (واسمه الكامل ويليام نوكس دارسي). فرجل نيوزيلاندي، استثمر منجماً للذهب في أستراليا. فلما أصاب الثراء العريض. انسحب إلى لندن يعيش فيها. حتى التقى ذات يوم بجنرال من جند الشاه. قال له: إن لدينا في بلادنا تفتحات من النفط معروفة منذ القدم. فلماذا لا تستثمر بعض أموالك في الكشف عنها. وتربح أنت. ونربح نحن. مورداً للبلاد؟

لم يكن دارسي يجهل أن ثروة روكفلر التي أضحت أسطورية إنما بدأت من بيعه في المعارض، بالغرب الأوسط من الولايات المتحدة، كميات البترول كدواء لنمو الشعر، ومعالجة الروماتيزم، وتزويد الفوانيس بمادة للاشتعال... وأن ابتكار المحركات البترولية قد قفز به إلى الثروة... وقد يبتسم الحظ في فارس لدارسي!

وانطلق دارسي وراء العرض المغري . أنفق ثروته كلها في البحث والحفر والتنقيب عشر سنوات دون طائل . لكنه إذا لم يكتشف البترول فقد اكتشف هذا الشعب الطيب الكريم في تلك البلاد وأحبه . وعوض عن بعض خسارته إقامة سكة حديد حول طهران !.. ونجح المشروع فصار مورد ضريبة للشاه الذي أراد إكرام الرجل فاستدعاه إلى بلاطه ...

وفي ذلك اللقاء من سنة ١٩٠٠ أعطاه الشاه هدية لا تكلفه شيئاً : ورقة في غلاف أخضر كتب فيها أنه يمنح نوكس دارسي وورثته ، أو أي رجل يتنازل له حق استثمار ما يظهر من البترول في جميع بلاد فارس ... ووعد دارسي أن يدفع ١٦ بالمائة من عائدات البترول مقابل هذه الهدية !!...

من المحتمل جداً أن دارسي كان يعلم أن البترول قد وجد . فلم يمض شهر على استلامه لهذه الوثيقة الخضراء حتى تناقلت الأنباء خبر العثور على البترول ... وأول من اهتم للخبر هو السلطات البريطانية . وبالذات قيادة البحرية والأسطول . إن مستقبل الأسطول البريطاني على المياه رهن بوجود البترول ، بعد أن اكتشف إمكان الاستغناء عن الفحم والبخار في السفن واستخدام المازوت في المحركات !...

وكان دارسي إذ ذك في الستين من العمر ... وقد قضى سبع سنوات بعد ذلك يحاول عبثاً استثمار بتروله . كانت المصاعب تقف له كل يوم لا يدري من أين تظهر ؟ اضطرابات . هجمات بدو . تدمير متعمد . وأهم من ذلك محاولات اغتيال متكررة اضطرته للبس الدرع ، وتشويه للسمعة بأنه ينجس المساجد !!...

كان يعرف أن الأميرالية البريطانية وراء كل ذلك . وقد عرضت عليه ٤٠ مليار فرنك نقداً للتنازل عن الامتياز فرفض !.. ولكنه في النهاية مل الصراع ورأى أن حياته أغلى من البترول .

ـــ أنا سيد البترول في فارس؟ إذن فلن يستخرج أحد من تلك الأرض

ـــ برميلاً واحداً من هذا السائل اللعين !

وأوقف دارس كل شيء . وهرب إلى مصر ... هناك أيضاً حاولوا اغتياله وحاولت السكرتيرة التي استخدمها سرقة الوثيقة الخضراء منه !... فقرر الهرب إلى فرنسا !

وذات يوم من صيف سنة ١٩٠٧ كان دارسي على ظهر إحدى السفن المبحرة من الاسكندرية ، يلقي نظرة أخيرة على آخر مناظر الشرق ـــ السفر البحري إلى مارسيليا في تلك الأيام كان يستغرق قرابة ثمانية أيام تمر بطيئة بطيئة . وقد زاد في ثقلها على دارسي وحدته وتقدمه في السن ، ولذلك كان سعيداً بالصحبة التي عقدها مع قسيس بروتستانتي . كان بدوره وحيداً على السفينة يتلو الكتاب المقدس بين الفينة والفينة .

بعد عدة أيام من التلازم والصحبة . وفي هدأة من الليل أفضى دارسي إلى رجل الدين بهمومه ... وجد في الاعتراف راحة غريبة . تحدث إلى الكاهن بآلامه . وما لاقى في تلك الوثيقة الخضراء من المخاطر والمؤامرات .

قال :

ـــ إن الخطيئة تتبع البترول كالظل . أصبحت أكرهه . أكرهه . ولا أدري ماذا أفعل بهذه الوثيقة اللعينة . إنها اختراع الشيطان لزرع الفساد والدمار في الأرض وفي نفوس البشر ...

وتفتقت قريحة الكاهن عن اقتراح :

ـــ لماذا لا تضعها في خدمة السيد المسيح ؟ لماذا لا تجعلها للإرساليات التبشيرية التي يمنعها الشاه نفسه من دخول بلاده ؟

ـــ ولكن أين هي الإرساليات التي تستحقها ؟

وبعد أن قلب الصديقان الآراء واستعرضا المؤسسات التبشيرية جميعاً لم تعجبهما واحدة ...

وكانت السفينة تقترب من مارسيليا حين استدعى دارسي صاحبه الكاهن وقال :

ـــ عن قريب سوف نفترق ولم نتفق بعد على الإرسالية المنشودة . أنت ذاهب إلى أمريكا . وأنا إلى مارسيليا . هذه هي الوثيقة يا صاحبي أتنازل لك عنها . وأنت تهديها ، بما تحمل من تقوى ودين ، للإرسالية التي تشاء ...

وتسلم الكاهن «الوثيقة الخضراء» وأهداها بالفعل ... ولكن إلى الأميرالية البريطانية !... لم يكن ذلك الكاهن في الواقع سوى الجاسوس سدني ريللي S. Relly أبرع عملاء المخابرات البريطانية على الإطلاق ...

بلى ! حاول سدني بعد حيازة الوثيقة أن يلعب اللعبة لمصلحته ولم لا ؟ ذهب يفاوض شركة ستاندارد أويل كومباني في نيويورك . ولكن المخابرات مخابراته هو كانت وراءه . ومن خلال توظيف بعض عملائها في خدمات التنظيف في تلك الشركة ، وادعائهم الأمية المطلقة ، عرفت بأسرار المفاوضات وفضحتها . وقامت الضجة في أمريكا . وعلى الشاه ناصر الدين ... إلى أن تسلمت الأميرالية البريطانية الوثيقة ، وأقامت على أساسها شركة آنجلو برشان أويل كومباني ... واطمأنت لمستقبل الأسطول في المحيط الهندي !...

أين نوكس دارسي؟... لقد مات في فرنسا مع النسيان لا يدري به أحد !

اللحم المثلج

أنت لم تسمع دون شك باسم شارل تلييه Ch. Tellier . وكيف تسمع ؟ إنه من قبائل النسيان . ومع ذلك فأنت تدين له . وأنا . وجموع هذا البلد ، وشعوب أخرى كثيرة كثيرة وفي أربعة أركان الأرض . بماذا تدين ويدينون ؟ دعونا نبدأ القصة من أولها ...

منذ مائة وخمسة وعشرين سنة في أعقاب حرب السبعين سنة ١٨٧٠ بين فرنسا وألمانيا ، قرأ الفرنسيون في صحيفة الفيغارو إعلاناً يقول : خمسة آلاف فرنك من الربح ، لكل عشرة آلاف فرنك ، في عمل شريف وموثوق . تدفع المساهمات في بنك فرنسا . باسم ش . ت .

الذين قرأوا الإعلان أخذوا الرجل على أنه مجنون أو أحمق . وبالرغم من أن الذين يعرفونه يستلطفونه . إلّا أنهم على الريب من حديثه . كان صاحب أخيلة في محركات تعمل بالأمونياك . ويضع مشروعاً لطرقات تحت الأرض . ولقطار هوائي . ولآخر يعبر الصحراء الكبرى بالطاقة الشمسية ... كل أخيلته كانت من هذا النوع الغريب على الناس . والرجل مهندس فقير . وكان يحتاج في تلك الأيام لينجح أن يكون ذا أرصدة لا تنفد . ولقد سجن مرة في بعض الديون ...

على أنه كان واثقاً من المشروع الأخير الذي خطر له لدرجة أنه في سنة ١٨٧٦ استطاع إقناع بعض المساهمين وإقامة شركة للمشروع . وأن يذهب في النهاية للبحث عن سفينة ينفذ أفكاره بها ! ...

ووجد السفينة كان طولها ٦٥ متراً وكانت حمولتها ٦٥٠ طناً وكان الثمن ٢٢٥ ألف فرنك ... وقال له صاحب السفينة : ولكن : هل أستطيع أن

أعرف ماذا ستفعل بها؟ وقال تلييه: سوف أنقل اللحم من الأرجنتين إلى أوربا ... أنقله مثلجاً!

ليس في هذه الفكرة الآن أي أمر مثير. أضحى من عاديات بيتك أن تفتح الثلاجة وتسحب منها اللحم المبرد. ومن بديهيات التجارة نقل العجول والخراف مجمدة، من قارة إلى قارة ... أما قبل قرن وربع القرن فقد كانت الفكرة تجعل المرء يقفز من الدهشة. كان معروفاً أن الأرجنتين كانت ـــ وهي ما تزال إلى اليوم ـــ بحر اللحوم. ولكن نقل هذه اللحوم تلك المسافة الشاسعة كان أمراً آخر ... تلييه كان أجرى التجارب العلمية الكثيرة على تجميد اللحوم ولكن ... هل يستطيع تحويل التجربة المخبرية إلى عمل تجاري ناجح؟ المشكلة الكبرى أمامه هي أن التبريد يحتاج إلى الغاز السائل. والسفن لا تقبل حمولته إلّا على السطح خوفاً منه. وإذا استطاع التغلب على هذه الصعوبة. فكيف يجتاز المحيط كله بحمولة سفينة من اللحم، ويحتفظ له بدرجة التجمد اللازمة والضرورية لحفظه؟

كان قد قام بتجربتين أخفق فيهما. أقام أولاً على مركب نهري أمازوني جهاز تبريد. ووصل الأرجنتين. ولكن أحد البحارة فتح صنبور الغاز فتسرب كله. ولم يكن في أمريكا اللاتينية كلها غاز سائل. فأخفق المشروع. وأقام ثانياً جهازاً على مركب إنكليزي. وفي طريق العودة توقف جهاز التبريد. فألقيت اللحوم كلها في البحر!... ولكن هذا الطوباوي الحالم ظل يحاول!... وأطلق على المركب الذي اشتراه اسم: الثلاجة.

أيهم أن نعرف كم قاسى ليحتفظ بدرجة الصفر في الغرف التي نظمها بقاع السفينة بينما حرارة غرف الآلات المجاورة تجاوز الأربعين؟ أم يهم أن نعرف أنهم نادوه يوم السفر من بين الآلات في القاع وأخبروه أن الاحتفال قائم وأن الكاردينال جاء للمباركة فلبس بدلة السموكن فوق بذلة العمل ذات الزيت والشحوم وخرج بهذه الهيئة للناس؟ أم أن نعرف أن ملك البرتغال استقبله في

لشبونة ، وهو في الطريق ، فلما عاد إلى الوراء من حضرته أوقع الزهريات الصينية الفخمة من الارتباك ؟...

بعد أسابيع من الإبحار وصلت (الثلاجة) إلى بوينس آيرس... كل الأرجنتين كانت تنتظر التجربة . أصحاب المزارع على الأخص ، والكثير منهم لا يعرف حتى اليوم عدد الألوف المؤلفة من الأبقار في مزارعه ، كان مصيرهم في الميزان . من الممكن أن يتحولوا بنتيجة المغامرة أصحاب ملايين !... وأقام شارل تلييه عشاء لكبار القوم . ولكنهم ارتعدوا حين رأوا قائمة الطعام : كانت مجموعة من أنواع اللحوم المثلجة مما جلبه الرجل معه . عمر بعضها يزيد على ١٢٠ يوماً .. وأهل الأرجنتين أكلة لحوم . ذواقو لحوم . مغرمون بانتقائه ، وتخيره وألوانه ... ووزعت قطع اللحم على المائدة فأحجم الجميع . أجرؤهم كانت امرأة رئيس الوزراء قطعت أخيراً قطعة صغيرة صغيرة وحملتها إلى فمها !...

فيما عدا الأفلام السينمائية ، ما تعلقت عيون بشفتين بمثل ذلك الاهتمام الذي تعلقت فيه عيون القوم بشفتيها ... ولا كتمت اللقمة وهم ينظرون . وصمتت وصمتوا ... ونظرت ونظروا . كانوا ينتظرون أن تقول شيئاً . وشعرت هي أخيراً بذلك . مصير ثروة الأرجنتين الحيوانية كان معلقاً بالكلمة التي تخرج من شفتيها قالت :

ـــ ماذا ؟ إنه لحم !...

وأقبلت الأيدي بالسكاكين على الصحون ... وأخذت صيحات الإعجاب تتوالى . وخرجت الصحف في اليوم التالي بالنبأ المدهش . إنه منجم من الذهب اللحمي قد فتح على الأرجنتين !

حين عاد الرجل إلى فرنسا ألح عليه رجال الشركة بفتح الباب الأوسع لإغراق السوق بالأسهم . ولكنه خاف نتيجة المغامرة المالية فانسحب . وانسحب الكثيرون ، فيما كانت إنكلترا تنزل بسرعة ، بجهود اللورد كلفين Kelvin أسطولاً من ٣٠٠ سفينة ثلاجة في البحر !!..

وعاد شارل تيلييه إلى الفقر والحياة المغمورة ... وفي المعرض العالمي الذي أقيم في باريس سنة ١٨٨٠ كانت السفينة تيلييه ـــ الثلاجة أحد المعروضات !... وقف أمامها تيلييه ، فسأله أحد العابرين : هل زرتها ؟ فقال : سمعت عنها !!

وانتهى الرجل مغموراً بين المغمورين الكثيرين ...

أما السفينة الثلاجة فكان لها مصير آخر بعد ذلك : أرسلت سنة ١٨٨٤ إلى أسبانيا . وفي وسط عاصفة من الضباب عنيفة اصطدمت بثلاجة إنكليزية فآذنت بالغرق . وهرب منها بحارتها . فالتقطتهم السفينة الإنكليزية التي ما لبثت ، بين عجب البحارة ودهشتهم ، أن رأت الثلاجة الفرنسية تظهر من خلال الضباب وتكاد تصطدم بها . وحسب الجميع أنهم وهموا بالأشباح . ولكن السفينة ظهرت مرة أخرى ، وضربت بمقدمها السفينة الإنكليزية ، فأغرقتها . وفيما كان البحارة في قوارب النجاة ، وقد انجاب عنهم الضباب ، فوجئوا مرة ثالثة بالسفينة الفرنسية ما تزال تدور في البحر ... وليس فيها أحد ... أهي الأشباح ؟

حين صعدوا إليها عرفوا السبب . كانت الضربة قد خرقت غرف التبريد ولكنها لم تؤذ الآلات التي ظلت تتحرك . وكانت الدفة قد ثبتت وهي مائلة فظلت السفينة تدور وتدور . ولكن الضربة الأخيرة قد خرقتها فأخذت تغرق ببطء ... وتم بغرقها غرق القصة كلها في دنيا النسيان !

ولكن العالم ظل حتى اليوم وسوف يظل يأكل اللحم المثلج !

«المغربون من الزنج»

المنسيون في حديث اليوم قبيلٌ يمتد في الزمن أكثر من ثلاثة قرون ، ويمتد في العدد على عشرات الملايين . كلهم مما أنبتته القارة التي يدعونها بالسوداء ومما ابتلعته القارة التي يدعونها باللاتينية !!

المحيط الأطلسي الذي يضرب أمواجاً ، وحيتاناً ، ورعباً شيطانياً ، وظلمات طبقات بعضها فوق بعض ، هو الذي شهد حكاية هؤلاء المنسيين وابتلع بدوره جانباً منها !...

هذا المحيط الذي كان يدعوه العرب بحر الظلمات ، كان تحدياً للفكر ، قبل أن يكون تحدياً لأجرأ المجاديف والأشرعة ، بلا نهائيته بامتداده بين القطب والقطب ، لغز الألغاز ونهاية الدنيا . كانوا يحسبون أن الشمس تغرق فيه عند المغيب لتطلع بأمر الله من المشرق ... وهناك يفور التنور وتلتهب جهنم بالأبخرة الحمراء ...

قبل كولومبوس بقرون ، قَبِل الكثيرون تحدي هذا المحيط . وحاولوا اختراقه . استباق كولومبوس مفخرة يتجاذب أطرافها أهل النرويج والسويد والدانمارك والإنكليز والفينيقيون والعرب . الحقيقة أن كولومبوس لم يكن أول من وصل القارة الأمريكية . ولكنه بكل تأكيد أول من عاد منها ! أول من عاد وقال : هناك أرض وراء المحيط وهي الهند !... أما الذي قال إنها أرض جديدة وليست بأرض الهند فهو أمريكو فسبوتشي ... وعن طريق الهزء منه أطلق اسمه عليها . ثم عن هذا الطريق .

صار جداً ما هزلت به رب جد جره اللعب !

أصبح الإنسان الوحيد بين البشر الذي تحمل إحدى القارات الكبرى اسمه على الأرض . . .

قبل كولومبوس وأمريكو حاول العرب اختراق المحيط . وخبر الفتية المغررين أو الفتية المغربين معروف . . . هل هم موضوعنا المنسي؟ موضوع الحديث منسيون آخرون من مثل هؤلاء المغربين ، عرف بعض مؤرخينا القدامى أمرهم بالمصادفة : منذ ستة قرون في أوائل القرن الرابع عشر الميلادي وصل القاهرة ملك بلاد مالي . كان في طريقه إلى الحج . ولكن الزيارة كانت من الأحداث الهامة التي لفتت الأنظار . كان يمشي في موكب من ٥٠٠ عبد يحمل كل منهم قضيباً من الذهب وزنه خمسمائة مثقال (ما يعدل ٦ كغ) . وكان يقدم من هدايا الذهب للناس الكثير ! . . . وعلى طول الطريق ! وقد سألوه في مصر : كيف وصل الحكم إليك؟ فقال حسب ما يروي المؤرخون . — إن الملك الذي كان قبلي وهو ابن عمي كان يظن أن البحر المحيط له غاية تدرك . فجهز مئات السفن . وشحنها بالرجال والأزواد التي تكفيهم سنين . وأمر من فيها ألا يرجعوا حتى يبلغوا نهايته أو تنفذ أزادهم . فغابوا مدة طويلة . ثم عادت منهم سفينة واحدة . وحضر مقدمها فسأله عن أمرهم فقال :

سارت السفن زماناً طويلاً حتى عرض لها في البحر في وسط اللجة واد له جرية عظيمة . فابتلغ تلك المراكب . وكنت آخر القوم فرجعت بسفينتين . فلم يصدقه الملك . فجهز ألفي سفينة ألفاً للرجال وألفا للأزواد واستخلفني وسافر بنفسه ليعلم حقيقة ذلك . فكان آخر العهد به وبمن معه . . .

هذا الملك الإفريقي المسلم المكتشف ، كان اسمه محمد بن قو بن ماري جاظة أي الأمير الأسد . . . هو ومغامرته من أولاد النسيان . ضاعت كل الأخبار عن كل أمره . . . وليس يعرف التاريخ عنه ، ولا عن مغامرة الألفي سفينة معه ، شيئاً سوى هذه الكلمات . وكان ذلك قبل مغامرة كولومبوس بقرن من

الزمان . ومنذ ذلك الوقت لم ينقطع صبيب الدماء السوداء في ما وراء البحر المحيط ، بحر الظلمات ...

في مطلع القرن السادس عشر ، ولم يكن قد مضى على كشف أمريكا عشر سنوات بدأ ذلك الصبيب يسيل . بدأت القارة الإفريقية تنزف دماء لسقاية للقارة الجديدة . بدأت المراكب تحمل اللحم الأحمر المحروق حتى العظم إلى « العالم الجديد » . كانت سفرة الملك محمد بن قو فألاً سيئاً بالنسبة لأهله . فقد كانت حاجة الأسبان والبرتغاليين الذين يركضون في العالم الجديد كبيرة إلى اليد العاملة . قتلوا الهندي فيها . أبادوه إبادة أو طاردوه ــ كالوحش إلى ظلمة الأدغال ، واحتاجوا من يساعدهم في استثمار الأرض . لا عددهم المحدود ، ولا اهتمامهم الجشع بالذهب ، ولا مكانتهم كحكام مستعمرين ، كان يسمح لهم أن يمسكوا المحراث ، أو يذوبوا في ظلمة المناجم والتعدين ، أو يقوموا بالأعمال الدنيا . والأعمال الدنيا لا مفر منها ... وإلّا فمن يبني ويطبخ ويكسح الطرق ؟... وهكذا بدأت الأيدي السوداء المشدودة إلى القيود تصل البر الجديد ! بندقية البارود التي تكفلت بإبادة الهندي هي نفسها التي تكفلت بالمجيء ببديله الزنجي . ما كان البرتغالي أو الإنكليزي والأسباني والهولندي والفرنسي بالذي يأبه للوسيلة أو للمصدر في تصيد العبد . حتى الرهبنات اليسوعية غرقت إلى الأذقان في هذه التجارة الحرام . وحاربت من أجلها . وادعت لنفسها أن الزنجي والهندي لا نفس له ! لا روح فهو والبهائم سواء .

ثلاثمائة سنة ظلت السفن الأوربية تنقل بالسياط والقيود ، وعلى العفن والسل والجرذان والقمل ، « العبيد » المسروقين من إفريقية . وتتقيؤهم على الطرف الآخر من المحيط ، سماداً حراماً للأرض ... هؤلاء المنسيون كانوا أو كان معظمهم على الإسلام في الدين ، وعلى العربية في اللغة ، والكتابة ، وعلى الأساس الإسلامي في التنظيم الاجتماعي والسياسي والحضارة . ومنهم من كانت

له التقاليد الفنية الأصيلة . وله الممالك والملوك ومراكز العلم والتأليف ، والتجارة الواسعة والعمران ولبس الحرير ، وتقاليد البلاط والحكم ... دمر النخاسون الأوربيون مجتمعاتهم بأسلحة البارود والنار . وساقوهم آلات إنتاج في القارة الأخرى ... وهناك : هم الذين أهلوا الأرض للزراعة . وزرعوها بالقطن وقصب السكر والذرة والتبغ . وهم الذين فتحوا مناجم التعدين . واستخرجوا الذهب والفضة والزمرد والحديد والنحاس والفحم . وهم هم الذين تركوا في حضارة أمريكا ، وعلى الأخص أمريكا اللاتينية ، طابعهم الخاص ، لونهم المميز في الفن ، في الرقص والموسيقى ، الزنجي المجهول هو الذي صنع البرازيل . وصنع هاييتي أيضاً ، وكوبا ، وصنع جانباً يكبر أو يصغر من الولايات المتحدة وأمريكا الوسطى وكولومبيا وفنزويلا ... كل ذلك في الصمت !... والنسيان . حتى تمرده ، حتى ثوراته التي ثار ، حتى زعماؤه ذوو الشرايين الجهنمية ، كانوا يحاطون بضباب الصمت ، ويدفعون إلى العتمة فلا ذكر لهم ولا خبر !.. ولقد ثاروا مئات الثورات وذبحوا سحقاً بالسنابك والسيوف والحقد مئات المرات . فمن ذا الذي سمع آهاتهم أو جؤار الغضب ؟ في سنة ١٨٣٥ كانت ثورتهم الكبرى ، ثورتهم المسلحة في منطقة باهيا من البرازيل . المشايخ هم الذين قادوها . بالعربية كانت الخطابات وبآيات القرآن كان التهاب الصدور !... ولكن الثورة ذبحت . الجند البرتغالي زرع الأرض على الطرقات جثثاً وأشلاء ... وراح الثائرون في المنسيين !!

الملحمة كلها التي استمرت ثلاثة قرون يبدو أنها ضاعت في النسيان وراء ابن ماري جاظة وسفنه الألفين !...

« قسام التراب »

الاسم المنسي اليوم نخرجه من تاريخ دمشق الإسلامي ... حتى المختصون بهذا التاريخ قد لا يعرفون هذا الاسم : هل قرأتم مرة اسم قسام التراب سيد دمشق « ملك الرجال ؟ » لا شك أنكم لم تقرؤوه في أي مرجع ... إنه اسم موغل في القدم مضى عليه أكثر من ألف سنة حتى الآن . ومثلها أو أضعافها من النسيان .

في تلك الأيام كانت دمشق تابعة للخليفة العباسي في بغداد ولكن الخلافة الفاطمية في القاهرة أخذتها منها سنة ٣٥٨ هـ ولكن ... لا دمشق ولا سائر مدن الشام كانت هادئة الحال ، أو آمنة الأسوار ، أو مطمئنة إلى الغد ، لا تحت الحكم العباسي ولا الحكم الفاطمي ... كانت كلها متروكة لمصائرها !... فإن نجت من زلزال لم تنج من فيضان . وإن لم يصبها القحط أو الجراد لم تخل من طاعون أو وباء . وإن لم يكن شيء من كل أولئك ... تكفل البدو بتخريب الزروع بالغزو ، أو اكتسح القرامطة البلد بالدمار ، أو أصيب البلد بوال يأتي على الزرع والنسل نهباً وإذلالاً ... وأين من يسمع أو ينجد ؟ وبغداد بعيدةً من جهة والقاهرة بعيدة على الجهة الأخرى !...

وكان لا بد من موقف دفاع أقبل فيه كل بلد ينظم أهله ، ليدفع عن نفسه بنفسه . تحول أهل المدن جنوداً . نبتت لهم أظافر وأنياب . لا للوقوف على الأسوار فقط ، ولكن لضبط الأسواق . وأمن السابلة ، ومعونة التجار ، وحرمة الأخلاق ...

ورأى تاريخ المنطقة ظاهرة عجباً : رأى ظهور ما نسميه اليوم

بتنظيمات الفتوة. هم سموها: الأحداث أي الشباب. قامت منظمات الأحداث في القدس. في عسقلان. في دمشق. في حلب. في طبرية. في الموصل. في المعرة. في حمص. في عكا... بكل مكان. الفراغ السياسي، المحن الساحقة، الفواجع العسكرية أنبتت تلك المنظمات من قلب الشعب. وسلحتها بأنواع الأسلحة. بل وفرضت لها الضرائب والأرزاق على الأسواق، وعلى الجماعات، وعلى الموسرين.

وإذا كان أفراد هذه المنظمات متطوعين من الطبقات المعدمة فلم يكن غريباً أن يكون زعماؤهم والقواد من تلك الطبقات!...

على هذا الشكل برزت في دمشق اعتباراً من سنة ٣٥٨ هـ عدد من الزعامات الشعبية، الغريبة كل الغربة على الجو السياسي السائد. ظهر أمثال ابن عصودا، وابن المارود، والدهيقين. نباتات وحشية خرجت من شرايين الشعب في الجو المضطرب... وكان أقوى هذه النباتات: قسام التراب.

أصله فلاح عربي من بعض قرى دمشق وتدعى تلفيتا. وحين قدم المدينة عمل في جمع القمامة، وفي بيع التراب. وتطوع مع الأحداث... وبسرعة صار من زعمائهم. ثم صار قائدهم سنة ٣٦٧ هـ وتسلم البلد!.. فلما أرسل الخليفة الفاطمي الولاة إلى دمشق، واحداً بعد الآخر، لم يستطيعوا معه شيئاً. سبع سنوات ظل الحاكم بأمره. وجاء خلال ذلك ثلاثة عشر والياً. فبعض طرد. وبعض خنع. وبعض قتل. والتراب هو الآمر الناهي... جيشه من الأحداث كان من فتيان المدينة والغوطة. وقد جعل له الأرزاق. ونظم الجباية في الأسواق، والخفارات في الغوطة كما يحب، وفي الأخبار أنه «صنع لنفسه ولأصحابه أعلاماً» وطوارق عليها صورة القحف (أو المجرفة) وهي أداة عمله الأول. جعلها شعاراً له... على السلاح والأعلام... ولم يتخذ لقب الأمير أو الوالي أو الوزير لم تعجبه ألقاب الدولة المعروفة. فاتخذ اللقب المبتكر الذي لم تتخذه قبله ـــ ولا بعده أحد ـــ لقب: ملك الرجال!!

وزحف الشعراء كذباب الحلوى إلى بابه يمتدحونه . وجاء أشهر شعراء الشام بعد المتنبي ، في تلك الفترة ، وهو عبد المحسن الصوري فامتدحه أيضاً بقصيدة ميمية !...

غلطة قسام إنما كانت ناجمة من موقعه الجغرافي كان بين الخلافتين المتناحرتين العباسية والفاطمية . حصاة بين حجري رحى . وأراد أن يلعب على الحبل بين الطرفين لعبة الموت ... وإذا كان يتقن البهلوانية المحلية فيبدو أنه لم يكن يتقن البهلوانية الدولية ... وكانت الخلافة الفاطمية هي الأقوى جنداً وذهباً ... فانتهزت الفرصة بعد احتمال سبع سنوات ، وحاصرته الحصار الاقتصادي وظهرت الشدة في الشام !...

انقطعت الميرة عن دمشق . وغلت الأسعار . وجاع الناس أبشع المجاعة . فأرسلت على دمشق جيشاً لم ترسل من قبل أقوى منه . وضرب الحصار العسكري عند الأسوار !... وأحرقت أرباض المدينة والضواحي فيها ...

ولم يستطع جيش قسام أن يقف للقتال أكثر من ثمانية أيام ... تخلى عنه أولاً المتمولون والطبقات الموسرة . ثم انفض عنه أنصاره بعد القتال الدامي !...

وحين تألف وفد من وجوه البلد لطلب الصلح ، وقبل القائد الفاطمي الصلح . فتش الناس عن قسام فلم يجدوا له أثراً ...

اختفى ملك الرجال . ونهبت داره وأمواله . ونودي في البلد بجائزة خمسين ألف درهم لمن يدل عليه ، وعشرين ألف درهم لمن يدل على أولاده ـــ ولكن أحداً لم يفز بالجائزتين ...

بعد أسبوع من استسلام المدينة دخل على القائد الفاطمي رجل قال إنه رسول قسام ، يطلب الأمان له من الموت . فلما وعده القائد بالأمان قال :
أنا قسام .

وسيق بالقيود إلى مصر ... ويقال أنه عفى عنه هناك . ويقال أنه مات !... ويقال ويقال ... منذ عضته القيود انتهى . دخل حرم النسيان ... ولم يعد يعرف عنه أحد أي خبر . حتى قصته التي تحولت في الذاكرة الشعبية أسطورة مثيرة ما لبثت أن محتها الأيام !...

زهور الكرز

قنبلة هيروشيما الذرية، حين ألقتها الولايات المتحدة على المدينة المنكودة أصابت الآلة الحربية اليابانية بما يشبه الشلل المفاجئ. كانت تلك الآلة نوعاً من الأخطبوط العملاق يمد فروعه الدامية، عبر المياه، إلى ألف جزيرة وألف موقع وموقع في المحيط الهادي وجنوب شرقي آسيا...

ويوم ضربت الآلة بالشلل، يوم تراخت بغتة أوتار النظام والقيادة والاتصال والمراكز العصبية التي تشدها، وتحرك، بقيت من تلك الآلة هنا وهناك بقايا منسية. قطع تتحرك التحرك الذاتي، تشدها قوى ومثل واعتقادات كامنة وراء ذلك النظام العسكري الياباني. وتستقي من ينابيع أخرى لا علاقة لها بالدفاع المألوف عن الدولة والوطن!...

السنوات التي أعقبت الحرب حملت إلينا قصصاً من القصص عن هؤلاء الذين كانوا، من الجيش الياباني، رغم انتهاء الحرب، يواصلون الحرب. ورغم انقطاع الاتصال بهم سنوات وسنوات، قد اتخذوا قرار الوقوف، وجهاً لوجه، أمام القديم، ولو وحيدين، في الجزر الضائعة أو في الأدغال!... لا أقسى ولا أرهب!... هذا الجمهور المنسي يكتب تاريخ اليابان بقدر ما يكتبه الأباطرة والسياسيون ورجال الأعمال الكبرى والقواد عليهم الرتب والأوسمة!... أليس يحدد ملامح أمة؟ روح أمة؟ وبالرغم من أنهم منسيون، تغمرهم أمواج العدد والزمن، إلّا أن واحدهم يمثل لحظة، توقف فيها التاريخ على الرجل النموذج!... من هؤلاء الرجال كان الملازم سوزوكي تاناغوشي...

لقد جند في أواخر الحرب العالمية الثانية، في تشرين الأول /أكتوبر/

سنة ١٩٤٤ ، وهو في السادسة والعشرين بعد تدريب في مدرسة التجسس . وتقرر له الذهاب إلى الفيليبين ... وهناك كان الأسطول الياباني قد سُحق . ونزل الجيش الأمريكي تحت فيضان من النار والحديد . يوم ودع الملازم أسرته قدمت له أمه غمداً فتحه فإذا فيه الخنجر الذي تتوارثه الأسرة منذ أجيال ...

في تشرين الأول /أكتوبر/ من سنة ١٩٤٥ ، بعد انتهاء الحرب واستسلام اليابان بشهرين تلقت الأسرة رسمياً أن الملازم سوزوكي قتل في جزيرة باراباك في الفيليبين في حزيران /يونيو/ من تلك السنة ... كانت الأسرة قد تلقت من قبل مقتل شقيق له . ولكنها أغرقت أحزانها في أحزان الأمة الواسعة . الوحيدة التي تفجرت بالبكاء هي شقيقة الرجل : ميتسوكو ... كان أكثر من شقيق لها . وكانت صورتهما أمام شجرة الكرز في حديقة المنزل . وزهور الكرز في الضمير الياباني رعشة خشوع هي بين الأبوة وبين التعبد الروحي . إن لها في الأدب الياباني ركناً خاصاً لا بد لكل شاعر أن يقف عنده وينحني . من بعض ما كتبوا فيها قول شاعرهم :

يا زهرة الكرز الصامتة ! ها أنت تعودين
بىلاغتك العريقة إلى مخاطبة أعماقي

وقول الشاعر أيسا ، أشهر الشعراء المعاصرين : في حدائق المدينة وهم يتأملون :

أشجار الكرز يصبح الغرباء أصدقاء !

وسمعت الشقيقة ميتسوكو في نهاية سنة ١٩٤٥ خبراً تعلقت به لعل ... ولعل هو أنه في الفيليبين ما يزال بعض البقايا من الجيش الياباني تقاوم ... وذهبت إلى الضابط الذي أعطاه آخر أمر عسكري :

هو الآن مسرح . ولكنه قال : لقد أرسلته إلى جزيرة باراباك في مهمة صعبة . ومع تعليمات محددة : أن يظل يقاتل . إن جيشنا سوف يأتيه هناك ولو بعد مائة سنة ! ولقد نزل الجزيرة في زي صياد ومعه سيفه . وجهاز إرسال

وبندقية وبعض المؤن ... بعد فترة تدريب طويلة على تدبر العيش ... بأي شكل ... ماذا تريدين؟ إنها الحرب ... يقتلون كل ياباني يستمر في القتال في الفيليبين. وتابعت الشقيقة، بعد ذلك، الأخبار: الأمريكيون يحرمون البقايا اليابانية المحاربة من الوصول إلى الشواطئ. ويجبرونها على الانكفاء إلى أعماق الأدغال. الأمريكيون يحملون عدداً من كبار اليابانيين إلى جزيرة بارابالك يتحدثون في مكبرات الصوت أن الإمبراطور يأمرهم بالاستسلام. الأمريكيون ... الأمريكيون ... كل هذه المحاولات لم تقلص العدد كثيراً ... ولكن الباقين لم يكونوا كثيرين. كانوا في التقدير الرسمي حوالي الأربعين وأعطتهم القيادة الأمريكية مهلة ٧٢ ساعة للاستسلام. وإلّا طوقت الأدغال وقامت بالإبادة ... ومع ذلك فهذه العملية أخرجت من القتال حوالي خمسة عشر منهم فقط !...

في نهاية سنة ١٩٤٦ حين تسلمت شرطة الفيليبين الأمر استطاعت أن تقتل في بعض الكمائن ثلاثة. وأن تأسر أربعة ... ونجح أربعة في الهرب. وكشف اعتراف الأسرى أن قائد الجماعة هو الملازم سوزوكي !

ونقل والد سوزوكي إلى الجزيرة ليحدثه في مكبرات الصوت: أنا أبوك. لقد انتهت الحرب يا بني. القتال عبث. فكر في أمك وأختك ... وكان صوت العجوز يختنق غالباً بالنحيب في النهاية !... ولكن المحاولة فشلت !... وشيئاً فشيئاً لم يعد سوزوكي يعتبر جندياً. ولكن من الخارجين على القانون ...

وفي حزيران /يونيو/ سنة ١٩٤٩ ورد خبر بأن اثنين من جماعة سوزوكي قد أسرا في كمين نصب لها. وأن الثلاثة الآخرين فروا يحملون قائدهم الجريح جرحاً مميتاً !...

وأيقنت الأسرة عند ذلك أنه مات ... ومرت سنتان. وجاء خبر جديد. أحد الثلاثة. استسلم وهو جائع وشبه عريان وذكر أن سوزوكي

ما يزال حياً وأنه يعتبر نفسه ما يزال مكلفاً بالمهمة العسكرية التي أرسل من أجلها ...

وأخيراً في نيسان /أبريل/ سنة ١٩٥٣ تطوعت الأخت ميتسوكو للعمل ... استشارت رساماً من أعمامها فقال لها: حدثيه عن أزهار الكرز التي تنبت كل ربيع في حديقة المنزل له وللعائلة كلها ... حين وصلت الجزيرة وجدت أن واحداً من الاثنين الباقيين مع أخيها قد قتل. والآخر قد استسلم ... لم يبق في الأدغال إلّا سوزوكي وحده !...

وخرجت مع حملة من الشرطة المسلحة، تحت الأمطار الغزيرة، وفي الوحول إلى بعض قرى الأدغال. وقالوا لها: فوق هذه الرابية الصخرية وسط الأدغال وراءها. هناك سوزوكي! أعطوها بعض صواريخ الإشارة. وصاحوا بمكبرات الصوت:

ــ لا تطلق. إنها أختك القادمة إليك!

بعد ساعة من التوغل والتسلق فوجئت الفتاة بيد على كتفها. إنها أمام أخيها وجهاً لوجه!

إنه في بذلته العسكرية ولو أنها مهترئة ...

ودام الحديث ساعات تحت المطر. إنه عسكري وفي مهمته. وإذا استسلمت اليابان فذلك أمر عابر مؤقت. لا بد أن تتحرر. فضائل الأجداد لا تقبل إلّا النصر أو الموت ... وفجأة تذكرت الشقيقة نصيحة عمها وزهور الكرز ... أخرجت صورة شجرة الكرز في حديقة المنزل وقالت:

ــ هل ترى؟ إنها تضج بالزهور وللعائلة كلها ...

والعجيب إنه بعد دقائق كان سوزوكي يمشي في حماية أخته نحو رجال الشرطة المبهوتين ...

وانتهت قصة جماعة أخرى من المنسيين !!...

زهرة الهينو (Heno)

...أنت لا تعرفها هذه الزهرة الرهيبة ولا أنا أعرف . إنها يابانية الاسم والمعنى والحكاية . وكل شيء يمكن أن يمر بخاطرك أو خاطري عن زهرة الهينو إلَّا هذا الذي رواه فتى ياباني رأى هذه الأزهار في طوكيو بعينيه ذات يوم من أيلول /سبتمبر/ سنة ١٩٢٣ . وروى حكايتها لصحفي من الصحفيين الذين هرعوا إلى طوكيو ، يستطلعون الأخبار ، إثر الزلزال الشهير الذي دمرها تدميراً تلك السنة ! الفتى الياباني النحيل ذو الستة عشر عاماً والذي يدعى تاناكا كان يقف بعينين فارغتين لا دمع فيهما ولا معنى ، فقد ذهب الرعب الوحشي بكل ذلك منهما . وهو يشير إلى هضبة سوداء منقطة بلطخ بيض ما تزال تحمل بصمات اللهب والدخان والرماد . هذا بعض ما قال :

ـــ لولا أني لم أطع والدي لكنت بعضاً من رماد هذه الهضبة !... أنا واحد من القلائل الذين نجوا من الجحيم . هربنا أنا ووالدي وأمي وإخوتي الأربعة من بيتنا . والناس تصيح جيشين (Jishin) ، جيشين : زلزلة ... حتى زبادي الرز في أيدينا كانت ترقص ، ونحن نأكل . وسرعان ما تراكضت صيحة أخرى تحذر الناس :

كواجي ! كواجي ! النار ! النار . أنت تعرف ماذا يمكن أن تفعله الزلزلة في أبنية من الخشب والورق . بيوتنا خشب وورق والأفران البيتية عند الظهر مفتوحة للغداء . وبالفعل كانت النار قد أخذت تطلق دخانها الأسود ، وألسنة اللهب في خمسة أو ستة مواضع ... قلت لوالدي : نجتاز نهر سوميدا . ونخرج خارج المدينة بعيداً في معبد أزاكوزا عن المدينة في وقت واحد . وأصر

والدي أن لا ضرورة لذلك. المعبد بعيد يكفي أن نجتاز النهر إلى رقعة الأرض المسورة بعده والتي كانت مستودعات للجيش. أرض فضاء واسعة. خمسون هكتاراً. سورها يرتفع أربعة أمتار. ولا بناء يهوى ولا ما يحترق!... ثم إن عرض النهر الذي يفصلها عن الأحياء المحترقة يبلغ ٤٠٠ متر...

لم يكن أبي وحده هو الذي فكر بهذه الأرض. آلاف بل عشرات الألوف جاءتهم الفكرة ذاتها. حين وصلنا كان الزحف إليها قد ملأها بالبشر. الجندي الذي كان مكلفاً بحراسة الباب، ومنع الدخول، كان واقفاً أمامه بحكم العادة. وأما اللاجئون فكانوا يدخلون بعرباتهم وأطفالهم والسلال والحقائب. والمظلات المفتوحة. وقال أبي:

ـــ امسك إخوتك بيديك خوف الضياع.

وغرقنا في الموجة البشرية المتدفقة إلى داخل الأرض...

بعد ثلاث ساعات أخرى ملأى بالضجيج ومراقبة أعمدة اللهب والدخان تأخذ في السماء وترقص، كانت الأرض قد أضحت برميلاً من السردين. كل البشر كانوا وقوفاً يلتصق بعضهم ببعض. الأطفال على الأيدي والظهور، لئلا يختفوا في الزحام. العربات الصغيرة الدراجات، وجبال الحقائب لم تكن تمنع من الخروج فقط، ولكن من الحركة أيضاً...

وسأل سائل: كم الساعة؟ كانت الرابعة. ولكن الجو كان قد تحول إلى الظلمة. الدخان الخانق الحارق كان يملأ العيون. «كل المدينة على الطرف الآخر من النهر كانت طعمة اللهب». هذا ما قاله صحفي تسلق السور وأخذ صورة الجموع... حوالي ٤٠ إلى خمسين ألفاً من الهاربين كانوا قد حشروا أنفسهم في المكان... وعلى حين بغتة ران الصمت على الناس. غزاهم بسرعة بعد أن سرت بينهم كلمة:

ـــ هيدو نو هانا Hedo No Hana.

لا! لا تتصور أن الكلمة تعني أن الإمبراطور المقدس أطل فساد

الخشوع !... لا .

والدي نفسه كان يسمع بالهيدو نو هانا ولا يعرفها . بعض العجائز فقط يتحدثون عنها . الكلمة تعني زهرة الهينو إنها زهرة النار ... حين تشتعل مدينة من الخشب والورق بضخامة طوكيو ، تشتعل كلها ، يتكون في الجو إعصارات من النار . زوابع من اللهب الشديد الحمرة . النيران تتفتح أزهاراً عاصفة تزوبع في السماء . عشرات منها أخذت تحوم في عباب الدخان كأنها كائنات أسطورية تطير ... ثم ... ثم قدمت علينا منها حوالي عشرة أزهار ... إنها نار الله الموقدة !!.. عبرت سماء النهر والسور إلينا . أنا لا أفهم قضايا اختلاف الضغط . ولكن قالوا لي أن اختلاف الحرارة بين طوكيو المحترقة الحارة وبين هذه الأرض التي لا حرارة فيها قد ساق أزهار النار إليها ... إنها لهيب طائر . أخذ المظلات أولاً ثم ألهب شعور النساء ، ورؤوس الأطفال هنا ثم هناك . ثم توالى يشوي الرؤوس والأجساد موجة بعد موجة . ولم يكن أحد يستطيع الهرب ولا التمدد على الأرض . كتلة الأجساد كانت متراصة حتى الشلل ...

وصاح والدي : غط إخوتك بجسدك !

لم أطعه . لم أستطع إطاعته . كان يدعوني بالقرد لنحولي وسرعة حركتي . واستيقظ القرد وقفز فوق الكتل المحترقة . كالمجنون كنت . لا أدري كيف تسلقت السور ورميت بنفسي خارجه . وركضت . ركضت . ركضت . كل ما وعيته أن يدي كانت على فمي ، لئلا أبتلع الدخان ... وأني وصلت النهر فغطست فيه رأسي وشربت وشربت ... فيما كانت صرخات كالعواء الحيوان تأتي بالآلاف من وراء السور ...

في هذه الهضبة الآن يختلط رماد أبي وأمي وإخوتي مع رماد أربعين ألفاً من الناس نجهلهم ويجهلوننا . ولكنهم التقوا لمدة ساعات محدودة في هذا المكان ...

بعد لحظة صمت أضاف الفتى يقول للصحفي :

ـــ هل تعلم؟ الجندي الذي كان على باب تلك الأرض كان لديه ما يكفي من الوقت للهرب ، والوصول إلى النهر والنجاة ... ولكنه في اليوم الثاني ، انتحر بالهاراكيري أمام قصر الإمبراطور . لو لم يسمح للجموع باللجوء إلى الأرض لما وقعت الكارثة !...

وقال الصحفي :

ـــ وأنت ياتاناكا ماذا تفعل أمام التل الفاجع من الرماد ومن بقايا العظام .

ـــ أنا أرتزق . لقد سمح الإمبراطور أن يأخذ كل قريب من أقرباء الضحايا قبضة رماد للذكرى .

أنا هنا أعطي قبضة رماد مقابل ين واحد لمن يشاء ...

من آمال وأعمال أربعين ألفاً لم يبق إلَّا قبضات رماد يرتزق عليها فتى ... من الفتيان ...

الباقون؟ قصة من التاريخ ابتلعتها زهرة الهينو ... والنسيان !

حصن فلاتر ... حصن الكحلا

يوم استقلت الجزائر، وركب المستعمرون الفرنسيون المراكب من شواطئها عائدين بعد ١٣٠ سنة من الاستعمار العنيد اللئيم، لم يركبوا وحدهم. ركبت معهم على المراكب نفسها كنائسهم والمدارس والنوادي ... وخوابي النبيذ! تركوا هناك الذكريات فقط!

الزمن وحده هو الذي تكفل بإغراق تلك الذكريات من بعدهم في البحر ... والنسيان.

وبعض هذه الذكريات رهيب العمق يستعصي على المحو، كذلك الذي فعله بعض قادتهم يوم طارد القبائل الثائرة فلجأت إلى الكهوف، مع قطعانها والنساء والأطفال. فما كان من القائد المظفر إلّا أن أمر بإحراق الأشجار في مداخل الكهوف لتمتلئ بالدخان، ثم بسد تلك المداخل بالبنيان ... فكانت مقابر جماعية لمن فيها!...

على أن بعض الذكريات الأخرى ليست بمثل هذا العمق الممزق. وقد محاها الناس. أعادوا الجوامع السابقة جوامع. غيروا في الشوارع الأسماء. مزارع المعمرين المنهوبة أعادوا توزيعها. البيوت أهلوها. القرى والحصون والشواطئ ألغوا أسماءها الفرنسية لتصبح عربية ...

في موجة محو الذكريات غاب عن خارطة الصحراء الجزائرية اسم وضعه الفرنسيون في قلبها: حصن فلاتر. فصار اسم الموقع كاوية الكحلا ... وغرق حتى في فرنسا نفسها اسم فلاتر في عالم النسيان!...

فمن هو فلاتر؟... وكيف انزرع الاسم في الرمال؟...

عمر القصة الآن قرن ونيف تقريباً ... بالضبط مائة وأربع عشرة سنة. فقد كانت سنة ١٨٨١. الصحراء الإفريقية الكبرى كانت لها على الدوام صورة المحيط الرملي الذي يفترس الناس بالعطش والسراب وعواصف الرمال ... أو بهجمات البدو ... صورة بدو الصحراء في الأذهان صورة شيطانية. هكذا صورتهم الدعاية الاستعمارية: محاربون بدون وجوه يخرجون بغتة من حيث لا يدري أحد: كأنما هم من خارج الزمن. يشكلون جزءاً من تكوين الصحراء نفسها، كالسراب وكثبان الرمال والواحة حول البئر!...

في مطلع سنة ١٨٨١ تلقى العقيد الفرنسي فرانسوا فلاتر أمراً بوضع التخطيط المبدئي للطريق الحديدي الذي تزمع باريس إنشاءه بين الجزائر والنيجر، عبر الصحراء. كان الرجل أحد المختصين بالصحراء. في العام السابق كان قد حاول الوصول إلى النيجر منطلقاً من الواحات في جنوب الجزائر. بعد شهر ونصف الشهر من المسير في مراحل محسوبة تمام الحساب لآبار المياه. وجد نفسه بغتة مطوقاً بالرجال الزرق ... محاربي الطوارق المحجبي الوجوه لا تبص منها إلَّا الأعين، والذين لا تخطئ لهم رمية. طلب منهم الأمان فأمهلوه حتى يستأذنوا شيخهم أخنوخن ... وظلوا على التطويق يرقبون. وذات ليلة هرب فلاتر برجاله في جنح الظلام. وفات الذين لحقوه فعاد إلى الجزائر.

في هذه المرة اصطحب معه محارباً منهم دليلاً ووسيطاً. لم يفهم معنى التحذيرات التي وردت من القنصل الفرنسي في طرابلس وتونس، بأن الحملة ستكون فاشلة ... مشى بمائة من الجنود. وفي بعض مراحل الطريق لم يجد البئر المنشودة. ونصحه الدليل أن يترك الأحمال مع بعض الحرس وأن يسير بالدواب فالبئر قريبة. وكانت البئر على مرمى الأعين حين نبعت من الرمال والكثبان فرسان الطوارق هاجمة تزغرد!... بالسيوف مزقت الحملة!... أبيدت عن آخرها وأبيد المعسكر الخلفي!...

باريس والصحافة الاستعمارية استغلت الحكاية لتبرير الإرهاب

الاستعماري ، والتوسع ضد هؤلاء المتوحشين الذين يقفون في وجه الحضارة . تحول فلاتر بطلا عسكرياً . ثم أسطورة استعمارية !... ولكي تكمل هذه الأسطورة قالوا إن الدليل الطوارقي هو الذي خانه ، وأوقعه في الكمين ... وقدم الأمر كواحد من المبررات لاحتلال تونس تلك السنة بالقوة . كما استغل في بورصات الأسهم المالية ودنيا رجال الأعمال الذين اشتروا بدم ذلك الجندي مصالح جديدة وامتيازات رابحة !... كليمنصو السياسي الفرنسي صاح بهم : أنا لا أرى من خلال هذه الحملات الاستعمارية سوى رجال هنا في باريس يربحون المال في سوق البورصة . إن هذه القضايا قد تهم المصالح الفردية غير أنها لا تهم الشرف الوطني ... ولكـــن الصيحـــة ضاعت وسط ضجيـــج الصفقات !...

الذي لم يفهمه فلاتر ولا ذوو البطون المنتفخة من رجال المال ولا كليمنصو والذي اكتسحه النسيان ولم يكتبه المؤرخون من قضية فلاتر والطوارق أنها كانت جزءاً من حركة الجهاد والمقاومة التي هزت القوى الإفريقية المسلحة كلها من شواطئ الأطلسي حتى ضفاف البحر الأحمر والمحيط الهندي في تلك الفترة بالذات من التاريخ ...

بل في تلك السنة نفسها سنة ١٨٨١ كان أحمد صامودو في غامبيا وساحل العاج قد بلغ أوج قوته في إنشاء دولته الإسلامية وبدأ الفرنسيون في قتاله بعد ذلك ١٨ سنة حتى اضطر للاستسلام بنفسه لمجموعة من الجنود نائمين تحت خيمتهم... وأخذوا سلاحه وأرسلوا سرج حصانه للمتحف الحربي ...

وفي تلك السنة نفسها كان المهدي في السودان يقف في عناد للإنكليز . وغوردون باشا عند الخرطوم . قبل أن ينتهي بدوره إلى الانهيار تحت الثقل الاستعماري الساحق . وكان السنوسيون في جغبوب واتباع الطريقة العويسية في الصومال ، والطريقة القادرية في السنغال ، يقفون لقوى الاستعمار

الكافرة من إنكليزية وألمانية وفرنسية، ويقاتلون. وكانت الجزائر بدورها تلك السنة سنة ١٨٨١ تقاتل الآلة الاستعمارية الجهنمية منذ سنتين. ثوارها في جبال الأوراس حوصروا مع أهلهم وأنعامهم في أعالي الصخور للجوع والعطش حتى الموت. الذين استطاعوا الإفلات من الحصار هلكوا في الصحراء تحت المطاردة العنيفة. الذين تزعمهم بو أميمة في جنوبي وهران سحقوا... أولسنا نذكر قصة الكهوف؟...

وأولئك الطوارق أصحاب فلاتر لم يكونوا إذن مجرد غزوة عابرة لقد كانوا جزءاً من موجة اليقظة والمقاومة والجهاد الواسعة. كانوا فصلاً من القصة التي كانت تكتب على طول الأرض الإسلامية الإفريقية، وأن يكن فصلاً منسياً. زعيمهم أيخنوخن هو الذي عرف بالحملة وأمر بتعقبها وكان الانتقام من جنس العمل...

فلاتر الذي مجده الاستعمار دخل الآن عالم النسيان يبقى أن يدخل أولئك الطورق المجهولون حرم التاريخ!

البالون القطبي

قبل عشرين سنة ونيف جذبت أنظار العالم كله رحلة الإنسان إلى القمر !...

قبل نهاية القرن الماضي بسنوات ثلاث، كان حادث القرن الأكبر الذي شغل الناس، مثل شغلهم برحلة القمر من بعد، هو البالون الذي صنع للتحليق فوق القطب الشمالي... البالون صنع في فرنسا. كان كرة هائلة ملئت بـ ٤٥٠٠م٣ من الغاز، وغلفت بغطاء من الحرير قد دهن بأربع طبقات من الورنيش ويحمل في القاعدة غرفة صغيرة أسطوانية ركبها المغامرون الثلاثة الذين قرروا القيام بالرحلة: قائد الرحلة أوغست أندريه وهو مهندس وصاحب خبرة. الفيزيائي فرانكل، والطالب الفلكي نييلز ستريندبرغ... الرحلة أضحت اليوم مع أصحابها من المنسيات، من تاريخ الطيران البدائي. كانت طفولة الفكر المجنح...

أما في ذلك الوقت فقد كان الخبر مالىء الدنيا وشاغل الناس.

البالون كان مقرراً أن ينطلق من جزيرة صغيرة في أقصى شمال السويد ولكنه قبل أن يصل هناك كان قد قدم إلى رئيس الجمهورية الفرنسية وإلى ملك السويد. وأضحى العالم كله يعرف صورته من خلال الصحف. ويعرف أن فيه مركبات كيماوية لتوليد الغاز إن نقص. وقارباً من القماش وعوامات وأدوات للتزلج. وإعداداً من الحمام الزاجل للمخابرة... ويعرف العالم إلى هذا كله إن ملاحي البالون ينتظرون هبوب الرياح الملائمة من الجنوب إلى الشمال للانطلاق... وفي ١٠ تموز /يوليو/ سنة ١٨٩٧، بعد انتظار سنة، هبت

الرياح وأعلن السفر . وفي الصباح التالي كان قائد الرحلة يعلن من غرفته الصغيرة :

أطلقوا الأربطة ... أطلقوا الأربطة ! وارتفعت الكرة الهائلة بجلال في الفضاء بين التصفيق والهتاف والتلويح بالمناديل . آلاف الأعين كانت على الأرض ترقب البالون وهو يرتفع . يرتفع . يلمع في ضوء الشمس ثم يصغر بالتدريج ويبتعد حتى يغيب ...

بين الملاحين الثلاثة ، نيلز وحده هو الذي اعتصر الألم قلبه . لقد ترك خطيبته بين المودعين . ولهذا كان يملأ وقته بكتابة رسائل لن يستطيع إرسالها إليها ... ولكنه يكتب ويكتب ...

بعد ثلاثة أيام اصطاد أحد الصيادين في شمال السويد بعض الطيور . وفوجئ أنها من الحمام الزاجل الذي حمله أصحاب البالون . وأنها تحمل رسالة تطمين !... هل كانوا مطمئنين ؟ الحقيقة أن التطمين كان من نوع التمني ... فما كتبه الملاحون في سجل البالون كان أمراً مختلفاً . كتبوا أن البالون ثقيل وأنه يسير ببطء ... بسرعة ١٥ كم في الساعة وأن البرد يزداد بشدة مخيفة ... وأن العواصف الثلجية التي اضطروا لاختراقها تركت على البالون المزيد من الثلج . القائد أندريه كان من الملاحين الماهرين ولكنه بدأ يفقد ثقته بنفسه حين وجد أنه لم يعد يتحكم جيداً في تسيير البالون ... وحين توقف الهواء ... بقي البالون ساكناً في الفضاء لا يتحرك ... ثم تحرك ببطء يبعث على اليأس وهبط وهبط ، حتى بدأت بعض روابطه تلمس الجليد .

واضطر الملاحون لإلقاء كل ما لديهم من أثقال : المواد المولدة للغاز الاحتياطي . السلاسل . الحبال . الحقائب ... ولكن البالون ظل يلامس الجليد كل خمس دقائق ... لم يعد بإمكانهم مع توالي الصدمات والوثب لا النوم ولا تهيئة الطعام ولا الاطمئنان للمصير . وكتب قائد الرحلة : بعد كم من الزمن سوف نجد من يقلدنا في مغامرتنا ؟ هل سوف نعتبر من المجانين ؟ الأرض تحتنا لم

تعد أرضاً . لعلها جليد مغطى بالماء فليس يظهر عليها أي تموج ...

وذات ليلة . توقف البالون فجأة . الصقيع المطلق منع الملاحين من أن يخرج أحدهم بأنفه من الغرفة . وجاءت في الصباح ريح غريبة . فانطلق البالون بغتة الانطلاق العنيف ... وقدر الملاحون أن حبائل البالون وأدوات التوجيه في أسفله قد علقت في الجليد ثم اقتلعت مع الرياح . لكن هذه الأدوات تحطمت في اليوم التالي ... وأضحى من المستحيل توجيه البالون . لم يكن أمام الملاحين الثلاثة سوى حل وحيد . الهبوط إلى الأرض .

انتظار المرور بمكان ملائم وفتح صنابير الغاز . بعد ساعات رأوا تحتهم حقلاً هائلاً من الجليد العائم تخترقه جداول من الماء . وفتح قائد الرحلة الصنابير وانطلق الغاز يصفر في الهواء ... وبعد دقائق كان البالون الذي تحدث عنه العالم قبل أيام ، واستقبله الملوك والرؤساء كومة قماش هامدة ، تموت في زفرة طويلة على الجليد !...

والآن ماذا نفعل ؟ كان هذا هو السؤال الذي طرحه الملاحون ؟ لن ينتظروا في مكانهم . ولديهم زخافة ومركب قماش ومؤونة كافية . ولهذا قرروا الانتقال من حقل ثلجي إلى آخر في اتجاه الأرض التي تركوا في شرقيهم !.. وفيما كانوا يتجهون شرقاً لاحظوا أنهم كانوا كمن يمشي في الحلم . كانوا لا يتقدمون أبداً رغم السير المرهق . كانت القطعة الجمدية التي يسيرون عليها تتجه إلى الغرب . وغيروا الاتجاه وساروا ... وساروا في هذه المرة أسابيع عرفوا فيها الإرهاق . ورجفة الصقيع في العظام ، وبكاء اليأس المرير ، والوقوع في حفر الجمديات والشقوق ... والجراح . وكان اليوم الذي يقطعون فيه خمسة كيلومترات يعتبر لديهم من الأيام السعيدة ! وأخيراً التهبت أجفان فرانكل الفيزيائي فأصبح شبه أعمى ،وسقط قائد الرحلة سقطة خطرة فلم يعد المسير سهلاً عليه ...

لم يلتقوا طوال هذه الأيام بعشب . بعصفور . بشيء سوى الجليد . بلى !

اصطادوا دباً فأكلوه ... وتمكنوا من دب آخر. ولكنه كان عجوزاً لا ينضج لحمه. كتب نيلز في مذكرته: «لا بد أنه جد جميع الدببة! ولكن صاحبي فرانكل يقول: إنه لا بد من المتقاعدين الذين خدموا في بعض المؤسسات الأوربية ثم أحيل إلى المعاش فرجع إلى قريته الأولى ليعيش من دخل أملاكه ...».

كان نيلز ما يزال يتابع كتابة الرسائل المستحيلة الوصول إلى خطيبته ... وكان الصيف قد مضى ... والشتاء القطبي يبدأ منذ شهر أيلول /سبتمبر/ بالنزول على الصحراوات الجليدية بالظلام والثلج والعواصف والصقيع. وفتش الملاحون عن ركن يقضون فيه الشتاء الطويل الطويل ووجدوه وأقاموا من أدواتهم ملجأً ثلجياً تكوموا فيه ...

خلال ذلك كله بقي العالم كله دون خبر عن البالون وأصحابه. وانتظر العالم. وانتظر سنة بعد سنة. بعد سنة. اثنتين وثلاثين سنة.

في سنة ١٩٣٠ استغل أحد الصيادين فرصة بعض أيام الحر الاستثنائية ليصيد حيوان المورس على شاطئ الجزيرة البيضاء. وهي على أطراف المنطقة المتجمدة. ولكنها من أكثر البقاع وحشية وفراغاً. فوجد تحت طبقة رقيقة من الثلج شيئاً من السواد. كان قارباً من القماش كتب عليه «بعثة آندريه القطبية سنة ١٨٩٦» وفيه بعض الحاجات المتجمدة. وتراكض الصيادون يبحثون في المنطقة ليجدوا بقايا ما تركت الدببة من الأجساد الثلاثة ... المصباح كان مملوءاً بالزيت، وبعض المؤن وآلة التصوير التي ظهرت صورها بعد ٣٣ سنة فعرف الناس منها كيف انتهى البالون ورأوا معسكر البعثة الأول ... كما التقط سجل رئيس البعثة الذي يذكر انهيار الملجأ عليهم منذ الليلة الأولى. وبقاءهم عدة أسابيع بعد ذلك ... قبل أن ... قبل أن ... من ذا الذي يعرف كيف كانت النهاية؟

أما رسائل نيلز إلى خطيبته فقد كانت في ثيابه. وقد وصلت إلى

الخطيبة بعد اثنتين وثلاثين سنة... لكن لم يعرف أحد منها إلا بعض الفقرات !!

أقسى ما في هذه المغامرة المنسية أن الوضع الذي ضاع فيه أصحابها والذي كانوا يظنونه بعيداً جداً إلى الشرق لم يكن يبعد مائتي كم عن نقطة الانطلاق !...

«في جزر المارتينيك»

كان يوماً كيوم القيامة :

﴿يوم تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد﴾

صدق الله العظيم.

هل سمعت بخبر بومبي؟... قبل ألف وتسعمائة سنة بالضبط ثار البركان الذي يجاور هذه المدينة، بركان فيزوف، فأرسل عليها سحباً من الرماد الناري غطتها بما فيها وبمن فيها... فاجأها القدر فما يزال على الجثث المتفحمة آثار المفاجأة واضحة متجمدة... ذاعت هذه القصة وشاعت. والناس يشهدون اليوم من أمر بشرها المتفحم وتماثيلها وحماماتها ومسارحها ومركباتها وإعلاناتها الانتخابية ما يشهدون. ولكن ما سمع أحد بالقصة المماثلة المنسية قصة مدينة سان بيير.

كان ذلك منذ ٩٣ سنة... بالضبط في أيار /مايو/ سنة ١٩٠٢. كل شيء هادئ كان في سان بيير في جزيرة المارتينيك[١] الفرنسية في البحر الكاريبي، ما عدا الجو السياسي. المدينة الممدودة على الشاطئ بسكانها

---

(١) هي إحدى جزر الأنتيل في البحر الكاريبي. مساحتها ١١٠٠ كم² وسكانها ٣٠٠ ألف تقريباً.

الثلاثين ألفاً كانت قد خاضت الانتخابات لاختيار نائبها للمجلس التشريعي وقصر المرشحان: ومرشح الأكثرية ومرشح الأقلية عن الوصول إلى الحد القانوني من الأصوات ... فكان على الاثنين خوض المعركة مرة أخرى بعد اثني عشر يوماً ...

واحتدم الزحام العنيف المحموم بين أنصار الطرفين. شارك في ذلك كل من في البلد ... المحافظ وأستاذ الفيزياء في الثانوية وصاحب مصنع السكر الوحيد في المدينة، وأسقف الكنيسة وصاحب الصحيفة الوحيدة في سان بيير كانوا هم أبرز الأسماء في الحملة الانتخابية ... حتى الرحلات التي كانت تنظم كل يوم أحد للصعود إلى قمة بركان بيلبه العجوز والأطلال على فوهته التي لم تتحرك منذ خمسين سنة إلى أن نبت عليها بعض الشجر وزحف عليها العشب الأخضر حتى هذه الرحلات تعطلت ذلك الأسبوع. بسبب الانتخابات ... الإعلانات الانتخابية والمجادلات لم تسمح للناس أن يأبهوا كثيراً لبعض الدخان الذي أخذ يتصاعد منذ أسبوعين من الفوهة البركانية المشرفة بهدوء على المدينة وحين لفت أستاذ الفيزياء نظر المحافظ إلى ذلك قال المحافظ:

ــ أهذا وقت مثل هذا الحديث ونحن نكاد نخسر الانتخابات؟... إنه في مكانه هذا منذ آلاف السنين ولا يتحرك ... دعه ينفس عن نفسه بإطلاق بعض الدخان ...

شخص واحد فقط في المدينة كان لا يأبه للانتخابات ولا لدخان البركان. ذلك الشخص هو النزيل الوحيد في السجن: زنجي محكوم بالسجن شهرين في بعض السرقة ...

وجاءت راهبات الدير القائم على السفح إلى الأسقف:

ــ أبانا نحن قلقات ... ديرنا منذ عدة أيام لم ير عصفوراً واحداً هربت العصافير ... وكثرت الأفاعي فوق الأرض.

ـــ أعلم أعلم إن البركان يطلق بعض الدخان والدخان أزعج العصافير هذا كل شيء ... انصرفن الآن إلى الصلاة !

وقال العمال لصاحب معمل السكر :

ـــ إنا نسمع هدير أصوات خفية في الأرض ... ونخاف . إن المصنع على مسيرة الوادي لو ...

قال :

ـــ يامعشر الكسالى !... إن البركان قد هدر منذ خمسين سنة وسأصعد إلى القمة وأريكم أنه لا شيء هناك ...

وصعد الرجل ثم عاد ... وأعاد الاطمئنان للعمال قائلاً :

ـــ إن فوهة البركان ملأى حتى الحافتين بالماء ... ولو أنه يغلي ويصعد منه البخار !

وكتب الصحفي إنا نشهد ثورتين اندفاعيتين : إحداهما من الخطب والمال وأوراق الاقتراع والثانية من الدخان والرماد ... وفي زاوية أخرى من الصحيفة كان ثمة إعلان عن الرحلة الأسبوعية إلى قمة البركان ... السجين وحده كان في السجن لا يدري بشيء ولا يأبه لشيء !

بعد أيام تغير الوضع قليلاً : اشتدت نيران المعركة الانتخابية ولكن القلق كان بدوره قد اشتد . كل الناس قد أخذوا بسحب الدخان البركاني التي أخذت تتكاثف وببعض البروق وبرائحة الكبريت وبالرماد الذي أخذ يتساقط على الأرض إلَّا أصحاب المعركة الانتخابية ... كانوا يخشون أن يؤثر ذلك كله على النتائج التي يرجونها ...

وبينما أخذت جموع طالبي الاعتراف تتزاحم في أرتال طويلة عند كاهن الكنيسة . وبعض أصحاب المراكب يهربون على مهل والسجين يطرق بابه صائحاً : اسمع هديراً تحت أقدامي ، كان المحافظ يبرق لحاكم الجزيرة : وضع البركان خطر . الناس في ذعر نطلب تعليماتكم . ويجيبه الحاكم : ألا تفهمون

ما لإخلاء المدينة الآن من النتائج السيئة على الانتخابات. طمنوا الجميع. وليبق كل في عمله! سأطلب التعليمات من باريس.

في ذلك اليوم بالذات كان عمال مصنع السكر أمامه مترددين فإذا بأحدهم يصيح:

ــ الجبل ينهار ... الجبل ينهار ...

ولكن جداراً من المهل الناري كان يزيد في الارتفاع على ثلاثين متراً كان قد لف المصنع والعمال وصاحب المصنع واستقر عند الشاطئ يغلي ... ربوة من الصخر الأحمر تغلي بما حوت من الأجساد وتصعد الدخان والأبخرة كعاصفة من الضباب ...

وأبرق المحافظ: النهب والذعر يستبدان بالمدينة ولا نملك الزمام نرجو تعليماتكم ورأى الحاكم أن يقطع الـ ٣٠ كيلو متراً التي تفصله عن المدينة على عجل ... فركب المركب ومعه امرأته، لتطمين الناس واصطحب أيضاً لجنة علمية لبحث الموضع ... ذلك أن وضع الانتخابات أضحى خطراً إن نقصت أصوات مدينة سان بيير! وسرى في الناس تيار من الاطمئنان حين رأوا هذا الجمع ... كما لو أطلقت تياراً من الهواء البارد في أفواه جهنم. وكتب الصحفي: إن المدينة وما حولها في أتم السلامة. واللجنة سوف تتابع دراسة الأحداث وتبلغ الناس بما تراه أولاً بأول والأمر لا يتعدى أن البركان أطلق ما يحويه من الرماد ...

وهمس الحاكم للمحافظ: إن تعليمات باريس أن يبقى السكان في المدينة بأي شكل إلى ما بعد الدورة الانتخابية في ١١ أيار /مايو/ ثم لكم حرية التصرف .. وتصرفوا ...

وفي صباح يوم ٨ تموز /يوليو/، وقبل أن يمر على ما كتبه الصحفي ١٢ ساعة وخلال ثوان لا تجاوز الخمس كانت أبواب جهنم تتفجر في قمة البركان بسيل جبار من الحمم والملتهب يهوي بعرض الوادي كله وبارتفاع عشرات

الأمتار ... فالمدينة كلها بمن فيها وما فيها كتلة من اللهب الأحمر وسحب الضباب ... حتى المراكب في الشاطئ احترق بعضها وغرق الآخر ...

وانمحت مدينة سان بيير بسكانها الـ ٣٢ ألفاً مع الحاكم واللجنة العلمية ... احترقت ما بين انتخابين . وحين جاءت فرق الإنقاذ بعد ثلاثة أيام سمعت في غرفة السجن طرقاً شديداً . إنه سجين المدينة الوحيد ... وكان الناجي الوحيد من المدينة . وكان هذا الناجي هو الوحيد الذي لا يحق له الانتخاب ..

« بترول فزان »

بين عصر هرودوت الذي يزعمونه شيخ المؤرخين ، وبين هذا العصر خمسة وعشرون قرناً . ومع ذلك فإن فقرة أسطورية من تاريخ هرودوت كانت وراء اكتشاف النفط ، في فزان في ليبيا ، ووراء المغامرات التي سبقت الاكتشاف . أوراق القصة كانت من الأوراق التي أهملها التاريخ لولا كتاب صدر منذ ٢٥ سنة يكشف الخبر كله ! ... ومع ذلك فمن ذا الذي قرأ الكتاب ؟ وماذا سجل منه المؤرخون ؟

هرودوت كان تحدث قديماً عن شعب الكارامانت في أعماق الصحراء الكبرى وعن كنوزه الهائلة من الزمرد خاصة والجوهر والمخبأة في جوف الصحراء . وفي العشرينيات من هذا القرن ، وفي أحد المشارب المتواضعة في المرفأ القديم بمرسيليا ، التقى ذات يوم حول هذه الأسطورة إثنان أحدهما (كونراد كليان) شاب فارع الطول يحمل صليب الحرب ، مختص بالجيولوجيا ، ويحلم بتحقيق حلم الطفولة : أن يكتشف في أعماق الصحراء الكبرى ، وهي عالم المعادن العجيب ، كنوز (الكارامانت) .

أما الشخص الثاني (لاكروا) فجندي سابق في الشركات الصحراوية . مغامر ، ويهوى الثروة ! ... وقد التمعت عيناه لذكر الكنوز . فلماذا لا يضع خبرته بالصحراء في خدمة صاحبه الجيولوجي ويتقاسم معه الكنوز ؟

في مطالع سنة ١٩٢٢ كان الاثنان قد وصلا الجزائر . ومعهما ثالث : هي فلورنس صديقة لاكروا التي كان تطلعها إلى كونراد المهذب أول أسباب الفرقة بين الاثنين . وانغمس الثلاثة في الصحراء يقودهم دليل من الطوارق ...

الجيولوجي الشاب أخذ بالصحراء. سحر معالمها العجيب. ما كان يحس جهنم الرياح، أو جراح العطش. كانت دنياه هي الأحجار التي يلتقط والملاحظات التي يسجل ليل نهار ...

وذات يوم، والمعسكر مضروب فوق هضبة تثقبها أعداد من المغائر والكهوف، خرج كونراد يبحث فيها فوجد لاكروا وصاحبته وراءه في الكهف. وصاح الاثنان:

ــ الزمرد!... الزمرد!!

كان كونراد واقفاً بالفعل أمام كتل صخرية خضراء شفافة ولكنه قال:

ــ إنه الفلدسبات وليس الزمرد... إنها لا تساوي فلساً!

ولم يصدقه الاثنان. حسبا أنه يريد احتجاز الكنز لنفسه! وحين اقتنعا في النهاية لم يبتلعا تماماً هذه المهزلة. وقررا عدم إعطاء الرجل أي تموين ليتعلم من هم الذين معه! وقاسم كونراد الدليل الطوارقي طعامه عطفاً وإحساناً. وبعد سبعة أيام عاد كونراد من بعض جولاته العلمية ليجد أن المعسكر قد سافر، بأمر صاحبه لاكروا. الدليل الطوارقي حين سأل عن كونراد قالوا له إنه مع الجمال الخلفية. ولما أحس الدليل بعد مسيرة نصف يوم بالأمر. عاد يبحث عنه فوجده مسحوقاً من العطش يتبع الأثر!!...

وعند ذلك قرر كونراد ترك القافلة. كان عند الاختيار الصعب أن يهلك في الرمال، أو يقتله هؤلاء. فاختار الضياع. وفوجئ أن الدليل الطوارقي قرر البقاء معه!... وقاده إلى جماعات الطوارق التي لم تسيء إليه. ولكنها في الوقت نفسه لم تخف الريبة منه!

الذين يودون أن تأخذ القصة أبعادها الرومانسية، يلقون عليها ظلال ألف ليلة ويضيفون أن ملكة الطوارق أعجبت بكونراد وأحبته. وكانت تقضي الليالي تطلب من الشعراء وعازفي الربابة التغني به وبشجاعته!!...

بعيداً عن هذا الخيال غادر كونراد جماعة الطوارق بعد عدة أشهر.

واخترق مع بعض الرجال الصحراء في اتجاه فزان في ليبيا ... الطريق كان في مفازة هي صحراء الصحراء. ويزعمون أنه أمر بذبح بعض الجمال ليشرب مما في معدها من مخزون الماء، كما فعل سيف الله خالد بن الوليد قبل ألف وأربع مائة سنة ...

وسواء صح الزعم أم كذب، فقد وصل الرجل في النهاية إلى بلدة فزان. اخترق إليها الرمال من الجنوب بينما كان بعدها في أعماق الصحراء الليبية قد حماها من الاحتلال الإيطالي الذي كان قد سيطر على طرابلس في ذلك الوقت ويلقى المقاومة العنيفة الشرسة بقيادة عمر المختار في برقة!... الشيخ في واحة فزان تقبل كونراد القبول الحسن حين رآه مهتماً بالحجارة لا بالناس ووثق به خاصة لأنه ليس بإيطالي. وكان على استعداد لاستخدامه ووضع المحاربين تحت أمرته. على أن كونراد كان يطارد أحلاماً أخرى مختلفة... مختلفة جداً جاءت خلاصتها في التقرير الذي قدمه إلى وزراة الخارجية الفرنسية والذي كان من شأنه في ذلك الوقت قبل خمسين سنة أن يقلب النظريات العلمية ويلقي الاضطراب في الاقتصاد العالمي قال:

لقد تحققت أن ثمة ملايين الملايين من براميل البترول تتغطى برمال الصحراء. ثمة خزائن هائلة من المال مدفونة هناك...

وحدد كونراد المواضع والمواقع التي ينام تحتها البترول...

بعد هذا التقرير بدأت حياته تتحول إلى المأساة. بدأت حملة من التسفيه له ولنظرياته.

السلطات الفرنسية في الجزائر لم تغفر له أن ينجح فيما تخفق به حملاتها العسكرية فجعلته للسخرية مخترع أقاصيص، وبطلاً من أبطال ألف ليلة المتأخرين!... وحدها شركات البترول واحتكاراتها الأخطبوطية اهتمت به. وعرضت عليه مرة بعد مرة المبالغ الخيالية مقابل معلوماته وخرائطه...

ورفض الرجل العروض والإغراء!... كان يأمل أن يبقى ذلك لفرنسا.

ولكن الحرب العالمية الثانية كشفت الأبعاد السياسية لمشكلته وكشفت أنياب الذئاب الدولية التي كانت تصطرع حول البترول الدفين ... لا تهمها الضحايا التي تسقط. ومنذ تبين النصر للحلفاء في شمالي إفريقية بدأت الضحايا. قتلت جماعة مجهولة الدليل الطوارقي الذي رفض كشف المواقع التي زارها الجيولوجي الفرنسي. نقل كونراد نفسه في أيار /مايو/ سنة ١٩٤٥ من الصحراء إلى مستشفى الجزائر في حالة تسمم خطيرة. قتل الجنرال لوكلرك الفرنسي الذي احتل واحات فزان في تلك الفترة !!... وأما بترول فزان فأخذته في النهاية شركة البترول الأمريكية؟ استاندارد أويل أوف نيوجرسي مع بعض حصص الترضية بالطبع للآخرين ...

وأما كونراد فوجدوه في سنة ١٩٥٠ مشنوقاً في نافذة فندقه في غرونوبل بفرنسا. والدماء ملء صدره ويديه. قالوا: إنه انتحر! ولو أن عارضة النافذة كانت ترتفع ١٢٠ سم وطول كونراد ١٨٥ ... لكن قبل أن يختفي كونراد في عالم النسيان بكثير كان تقريره إلى الخارجية الفرنسية قد اختفى أيضاً!...

« إمارة باري الإسلامية »

باري . المدينة الإيطالية الحالمة على ضفة البحر الأدرياتيكي . إذا ذكرت ذكر الناس شواطئها . معرضها . تجاراتها . طيور النورس تحوم فوق تماثيلها ... والذين يزورونها يخرجون ، وعلى الأجفان ما هو أكثر بكثير من الذكريات ... ولكن من ذا الذي يذكر أن هذا البلد والبلاد المتصلة به تارانتو . برنديزي كانت لها مغامرة إسلامية امتدت أكثر من ثلاثين سنة ؟ من ذا الذي يذكر في تلك البلاد ، أو في تاريخ إيطاليا ، اسم المفرج بن سلام ؟... ونرجع القرون القهقري أحد عشر قرناً ...

مياه البحر الأبيض المتوسط كانت ملعب السفن الإسلامية . حيازيمها والأشرعة والإعلام في تلك الأيام كانت سيدة الجلد الأزرق . ما تغيب منها سفينة على الأفق حتى تطلع سفينة : من مصر . من الساحل الشامي . من تونس . من المريه وبرشلونة في الأندلس ، بل من الجزر الكبرى والصغرى في البحر المتوسط أيضاً . فقد كانت جزر كريت وصقلية ومالطة وسردينة وجزر الباليار مواقع إسلامية أيضاً ! ولم تكن السفن تحمل التجارات فقط وتخوض الصراع التجاري ولكن تحمل المجاهدين أيضاً في سبيل الله . وتخوض الصراع الديني لنشر القرآن ... وبين التجارة والجهاد تسرب إلى الصفوف والسفن الكثير من المغامرين ...

كانت الخلافة العباسية هي الدولة الكبرى والأولى في العالم يومذاك . المأمون بعد أبيه الرشيد كان على رأسها ثم تولاها المعتصم ... وبالرغم من أن خلفاء بغداد لم يصرفوا همهم إلى البحر . لم تكن تغريهم مغامرات السفن

وأمامهم القارة الآسيوية ، إلَّا أن القوى العربية السابحة في البحر ، من صقلية وكريت وتونس لم تكن لتهتم كثيراً بهذه السلبية الرسمية . نصر الإسلام لا ينتظر أوامر الحاكمين ...

ولم يكن قد مضى على وفاة المأمون خمس سنوات حتى وصلت الأخبار سنة ٢٢٣ هـ بسقوط مدينة برنديزي ، على البحر الأدرياتي في أيدي الغزاة المسلمين ؟ من ذا الذي كان صاحب الفتح ؟ لقد سقط اسمه في زحمة التاريخ . ومع ذلك فهذا المسلم المجهول استطاع أولاً ضم الأسطولين من كريت وصقلية والنزول على الشاطئ الإيطالي الشرقي ... ثم استطاع أن يمسح عن وجه البحر أسطولاً أرسلته البندقية للنجدة من ستين قطعة حربية . فتركه المسلمون ، بعد الأهوال الشداد حطاما ومزقا من الأشرعة وبقايا أخشاب طافية بين الدماء والجثث !...

بعد سنة من ذلك فتحت مدينة تارانتو . وهزم مرة أخرى أسطول جاء من الروم يدافع عن المنطقة . من ذا الذي كان صاحب الفتح والنصر ؟ مرة أخرى لا نعرف . إنه مجهول آخر !...

بعد ثلاث سنوات أخرى سنة ٢٢٧ تفتح مدينة باري ويتكون من هذه المدن ومن المناطق المجاورة ولاية إسلامية تدوم ثلاثين سنة . في هذه المرة نعرف اسم الفاتح : إنه المفرج بن سلام ... ولكنا نجهل كل شيء آخر عنه .

دخل الرجل إيطاليا أولاً يتعرف الأرض والناس . بل أعان بعض القوى الإيطالية ضد بعضها الآخر . حتى تكاملت حوله الظروف . فوثب على باري وأقام فيها قاعدة الإمارة باسم الله والإسلام . ثم بث الجيوش تحاصر روما نفسها وأرسل الأساطيل تغلق البحر الأدرياتي على أساطيل البندقية ... وتابع الفتح بنفسه ففتح أربعة وعشرين حصناً ... وبنى للمسلمين في باري المسجد الجامع ...

الوثائق الإيطالية تذكر أن المفرج كان على التسامح الديني الكبير . وتذكر

أنه كان يشجع الحجاج المسيحيين على الرحلة إلى القدس. ويسعى ليحصلوا على السفن. ويكتب في تسهيل مرورهم بالبلاد الإسلامية التي يجتازون. ولا سيما مصر ...

وذات يوم فوجئ صاحب البريد في مصر بكتاب من المفرج يعلمه خبره وخبر فتوحه ويطلب منه إبلاغ الخليفة في بغداد إنه يود الانضواء في طاعته. «إنه لا يرى لنفسه ولمن معه من المسلمين صلاة إلّا بأن يعقد له الإمام علي ناحيته ويوليه إياها رسمياً ليخرج من حد المتغلبين كما قال ويصبح الحاكم الشرعي ...»

كانت الخلافة قد آلت منذ سنوات قبل ذلك إلى الخليفة المتوكل وقد انتقلت العاصمة إلى سامراء حيث استقبل الرسول والكتاب. ولم يكن الخليفة قد أرسل الجواب بعد إلى المفرج. حتى ورد كتاب آخر من باري ... لقد قتل المفرج! قتله منافسوه وتولى الأمر مكانه قائد آخر اسمه سودان. جاء يطلب من الخليفة بدوره شرعية الحكم ...

في هذه المرة، وقبل أن يصدر الجواب قتل الخليفة نفسه!!... وإذا صدر التقليد بعد ذلك متأخراً بعض التأخر ... فإن ذلك هو آخر عهدنا بأخبار الإمارة الإسلامية في باري.

كل ما نعرفه بعد ذلك أنها استمرت ثلاثين سنة ثم ضاعت!

كبعض الزهور الوحشية تفتحت ثم ذبلت ... تحالفت ضدها مملكتان: إمبراطورية الروم ومملكة الفرنجة. وفيما كانت قوى الأسطول الرومي تهاجمها من البحر، في أكثر من مائة سفينة، وتدمر قواها في الميناء، كانت عساكر الفرنجة تدمر الأسوار في البر!...

من تراه كان حاكمها يومذاك؟ من ذا الذي قاد الدفاع؟ كيف كانت ملحمة الختام في قصة هذه الإمارة العربية الإسلامية؟

كل ذلك الآن ضائع في لجج النسيان... ولكنك إذا مررت اليوم في بعض أزقة باري، أو أزقة تارانت أو برانديزي فإنك لا بد ملتق ببقايا من ملامح المفرج أو سودان!...

« المنسيون في الصين »

« اطلبوا العلم ولو في الصين » حديث من الأحاديث المأثورة ما يزال واضح الأصداء والرنين في النفوس... الصين كانت في العهد النبوي وإلى ما قبل عدة قرون فقط أقصى الأرض. أبعد البعد. نهاية الآفاق ... ومع ذلك فآلاف من العرب، من الجماعات العربية المنسية قبل عصر النبوة، وبعده، نسجت الطريق البعيدة بين أرض العرب والصين. وحرثته حرثاً جيئة وذهاباً في مياه المحيطين الهندي والهادي. ولو أن هذه المياه كانت تمحو الطرق باستمرار، وتمحو معها أسماء أصحابها. تلقي كل شيء في غياهب الظلام...

ملحمة الموت والضياع على تلك المياه لم يكتبها المؤرخون. لقد نجد أصداءها والأساطير في قصص السندباد. لكن تلك القصص على ما فيها من الرعب، لا تحمل إلَّا الظلال الباهتة !... التمزق على الصخور. صراع الرياح المجنونة. عويل الشرايين على اليأس. الأشرعة كالعصافير الميتة. سياط النخاسين. الفك المفترس. العطش يحرق الأكباد... كل ذلك بعض من آلام تلك الرحلات التي كانت تمتد الواحدة منها بين غدو ورواح سنتين... وراكب البحر مفقود والخارج منه مولود !...

في تاريخنا، الصمت المطلق يلف جميع هذه الملاحم وأصحابها والأحاديث... لولا بعض أخبار الرحلات...

الصينيون، على الطرف الآخر من العالم هم الذين حدثونا عن قومنا الذين وصلوا هناك إلى الصين وأقاموا الجسور السياسية والتجارية والثقافية

معها ... بلى ! إنها لمحات ضمن التواريخ الواسعة التي سجلوا . ولكنا نجهل حتى تلك اللمحات !

أقدم الأخبار الصينية المتصلة بتاريخ العرب المسلمين خبر جماعة عربية مسلمة وصلت الصين زمن عثمان بن عفان ... الخبر يقول إنه في السنة الثانية من عهد الإمبراطور يو نخوى (أي في سنة ٦٥١م الموافقة لسنة ٣٠ ـــ ٣١ هـ) جاء وفد من أرض بعيدة جداً ، في غرب بلاد فارس ، ومثل بين يدي الإمبراطور ونقل إليه أنباء تلك الأرض التي ظهر فيها نبي بعثه الله من بين العرب يدعو إلى توحيد الله وقالوا إن ملكهم يدعى هان مي موميني (أي أمير المؤمنين) وأن دولتهم قامت منذ أربع وعشرين سنة وقد مضى منهم ثلاثة ملوك حتى الآن ... هل يعرف أحد من هو هذا الوفد الضائع ؟ إنه من قبيلة النسيان .

بعد ذلك بقليل من السنين يكتب مؤرخ صيني آخر :

«في عهد دولة تانغ ، وفد على كانتون عدد كبير من الغرباء من مملكة أنام وكمبوديا ومدينا (أي المدينة) وبعض البلاد الأخرى . وكان هؤلاء الغرباء يعبدون الله . وليس في معابدهم تمثال ولا صنم ولا صورة . وكانت مملكة مدينا قريبة من مملكة الهند . وفيها نشأت ديانة هؤلاء الغرباء التي تختلف عن ديانة بوذا . وهم لا يأكلون لحم الخنزير . ولا يشربون الخمر . ويعتبرون الذبائح التي لا يذبحونها بأيديهم طعاماً نجساً . ويطلق عليهم الآن اسم هوى هوى ... ولما استأذنوا الإمبراطور وحصلوا منه على الأذن بالإقامة في كانتون ، بنوا دوراً جميلة من طراز يختلف عن ذلك الذي في بلادنا وكانت لهم ثروة عظيمة ويدينون بالطاعة لرئيس انتخبوه بأنفسهم ... » .

مرة أخرى . هذه الجماعة المنسية من هي ؟

بعد حوالي مائة سنة من ذلك يسجل مؤرخ صيني ثالث الصورة التالية :

«إن برابرة الغرب قد دخلوا المملكة الوسطى جماعات كالطوفان. جاءت من مسافة تبعد ألف فرسخ على الأقل وأتت من أكثر من مائة مملكة تحمل معها كتبها المقدسة كأنها فريضة. وقد أخذت هذه الكتب ووضعت في بهو القصر الإمبراطوري المخصص لترجمات الكتب المقدسة».

وهل أحتاج إلى تكرار الجملة الأخيرة لنتبين مرة ثالثة من ترى كان هؤلاء المسنيون في الغربة؟ إن أول ترجمة للقرآن الكريم إنما كانت بسببهم وكانت إلى اللغة الصينية، وفي مطالع القرن الثاني الهجري؟ قبل ألف وثلاثمائة سنة؟...

ولقد تحسب وأحسب أن التاريخ قد أهمل هؤلاء الذين غزلوا الطريق بدموعهم والعرق والآلام بين الصين والجزيرة العربية، لأنهم إنما كانوا من التجار والأفراد ولم يكونوا من القواد والأمراء... ولكن أهل الصين يروون أيضاً خبرين سياسيين. خبرين تدخلت فيهما الدولة العربية الإسلامية في الصين وقدمت المساعدة العسكرية للإمبراطور ومكنت له على العرش حين استعان بها ضد الثوار... كانت دولة الإسلام هي القوة الدولية الأولى والكبرى والوحيدة في الدنيا، ويبدو أنه حتى البعد الذي تنقطع دونه الأنفاس والقوى، في أقصى الأرض، لم يمنع تلك القوة أو أتباعها على الأقل من التدخل.

الخبر الأول ذكره المؤرخون الصينيون. قالوا: إن القائد التركي الرهيب (آن لوشان) ثار على الإمبراطور سنة ٧٥٤ م (أي سنة ١٣٦ هـ) ليغتصب العرش. فتنازل الإمبراطور عن الحكم بعد سنتين لابنه سو تسونغ. فطلب الابن النجدة من الخليفة العباسي آبو جافو (أي أبي جعفر المنصور) فأجابه الخليفة وأرسل إليه قوة من الجيش العربي نجح بمساعدتها في استرداد عاصمتين: سي نغان فو وهونان فو من أيدي الثوار... وفي نهاية الحرب لم ترجع هذه القوة إلى بلادها بل بقيت في الصين. وتزوجت هناك. قالوا إن السبب في ذلك أنهم وهم في الصين أكلوا لحم الخنزير، وخافوا أن يعودوا

فيؤخذوا بهذه الكبيرة التي ارتكبوا من المحرمات. ولعلهم بالعكس استطابوا المقام والبلاد. فبعض الأخبار تذكر أن حاكم كانتون حاول إجبارهم على الرحيل فامتنعوا. وانضم إليهم إخوانهم في الدين من العرب والفرس وسلبوا المتاجر الهامة في المدينة. فأنقذ الحاكم نفسه بالالتجاء إلى السور... ولم يتمكن من العودة إلى البلد إلّا بعد أن حصل من الإمبراطور على إذن لهذه القوى العربية بالإقامة في البلاد. وخصصت لهم الأراضي والدور في مدن مختلفة حيث استقروا وتزوجوا من نساء البلاد...

من تراها هذه القوة يا ترى؟ ومن قائدها؟

أمّا الخبر الثاني فيأتي بعد الأول بخمسة قرون. ذكره رشيد الدين مؤرخ المغول قال:

في سنة ١٢٧٠م كان قبلاي خان (وهو شقيق هولاكو المغولي الذي نعرف والذي دمر بغداد) يحاصر مدينة فان تشينغ آخر المعاقل التي احتمى بها إمبراطور الصين من المغول. واستخدم الصينيون ضده أسهماً طائرة مدفوعة بقوة البارود. ولم يكن المغول يعرفون هذا السلاح. فأرسل قوبلاي يطلب من بلاط أخيه في العراق وإيران إيفاد المهندسين إليه: فأوفد إليه واحداً يدعى علاء الدين وآخر يدعى إسماعيل. كما قام بإيفاد مهندس بعلبكي دمشقي عالم بالبارود وسلاحه إليه. وقد بنى أولاد هذا المهندس الثلاثة أبو بكر وإبراهيم ومحمد عند قوبلاي خان سبع آلات ضخمة (أي سبع مدافع) وأتوا بها إلى المدينة المحاصرة... فدكوا أسوار المدينة وانتهت بذلك الإمبراطورية القديمة في الصين... تمام الخبر أن قوبلاي خان أمر بترجمة أقسام من القرآن الكريم ومن الإنجيل والتوراة إلى اللغة المغولية!...

وهذه هي الترجمة الثانية للقرآن فيما نعلم وإلى لغة المغول!...

هؤلاء المهندسون المجهولون، وأولئك السابقون، والسابقون الأولون الراضون بالعتمة والنسيان ألم يصنعوا شيئاً في التاريخ؟

« السياسي الكبير »

نحن في أواسط سنة ١٩٦٢ المعركة الإنتخابية لحاكمية سان باولو كانت على أشدها في تلك المدينة الديناميكية العجيبة التي يسمونها « قاطرة البرازيل » ... المرشح الأقوى كان يومذاك هو آديمار دي باروس، السياسي العتيق.

وقد نجح بالفعل. كان قد فاز قبل ذلك أكثر من مرة بهذا المنصب. لكن هذه معركته الأخيرة ... فقد مات بعد ذلك. وهم الآن قلما يذكرونه في مدينته. وأقل من ذلك ذكره في البرازيل !!... انطفأ تماماً. دخل حرم النسيان مع أنه كان في الخمسينيات من الأسماء التي تلمع وتصقل لدخول القصر الجمهوري البرازيلي !!...

خلال المعركة الانتخابية سنة ١٩٦٢ كنت أسمع من أخباره الكثير على الأفواه. كان طبيباً. وعضواً في الأكاديمية الوطنية للطب. لكنه لم يمارس الطب أبداً. وكان صاحب مصانع للأحذية. وللمحفوظات. ويدخل في تهريب البن والمقاولات، والبنوك. ولكنه لا يهتم لا بالصناعة ولا البن. كان للسياسة فقط. والسياسة عنده ليست مغامرة مما يغامرون. ولكنها عمل، ومهنة، ومصدر للأرباح ... شركته الكبرى كانت الحزب السياسي الذي أسسه وحده باسم حزب البرازيل الديمقراطي ... أحد أنصاره القدامى، وهو مغترب عربي، روى لي في دكانه الذي يبيع فيه التبغ حكايته مع السياسي الكبير:

ـــ أنا أحدثك عن دي باروس ... قال. هذه الهياكل السياسية الضخمة نحن صنعناها بأيدينا لتسحقنا. نعرف كل فراغها. كل أنانيتها. نعرف أنها تنين

دون قلب . ومع ذلك نعجز عن تحطيمها . بمجرد أن تكبر تصبح أعظم من أن تحيط بها أيدينا . هل تعرف البالونات الضخمة ؟ ماذا تريد ؟ . . . لست إلّا واحداً من المنسيين على طريق دي باروس السياسي . هناك مئات الألوف من مثلي تساقطوا على طريقه . وطريق غيره كورق الشجر الخريفي . . . أنا الآن لا أحبه . ولا أكرهه . لقد تجاوزت ذلك بعد أن وصلت في خدمته حافة الموت !! . . . سأروي لك القصة في منتهى الحياد كما لو كانت قصة شخص آخر ولم لا أقول أني الآن شخص آخر ولد بعد قصة الموت في الغابة الأمازونية سنة ١٩٥٠ ؟

ويعد فترة من الصمت . . . استعاد بها الذكرى على عينيه قال :

ــ أنت تعرف أن السنيور دي باروس متزوج من واحدة منا . زوجته عربية .

وقد أخذت به في أوائل الأربعينيات . كنت مفتوناً بتدفقة الخطابى . الممتلئ بالكلمات الضخمة ، والمثاليات ، ودخلت من أجله أكثر من معركة . . . وذات يوم من أوائل أيار /مايو/ سنة ١٩٥٠ استدعاني مع بعض الذين استدعاهم في مهمة خاصة . . . ما أزال أذكر تلك التواريخ بوضوح :

كان الراديو قد أذاع بعد ظهر ٢٩ نيسان /أبريل/ سنة ٩٥٠ أن طائرة البوينغ الضخمة (بريزيدانت) التي تعمل على خط ريو دي جانيرو ــ نيويورك تركت الريو في منتصف الليل الماضي وفقد الاتصال معها . . . وعلى الطائرة واحد وأربعون مسافراً وتسعة ملاحين . كان هذا الخط يعتبر أهم وأغلى وآنق خطوط الطيران الدولي يومذاك . نصف المسافرين كانوا من أصحاب الملايين . آخر اتصال مع الطائرة كان قبل طيرانها فوق الغابة الأمازونية .

الحكومة . دنيا رجال الأعمال . الصحافة . الناس كلهم اهتزوا للخبر فالذين كانوا في الطائرة هم شيء كبير في البرازيل . في المساء أذاعت الأنباء أن قائد الطيران كلف العقيد الطيار (خوزيه كارلوس دي سوزا مورينو) أن يذهب إلى مدينة بيليم (وهي على اسم بيت لحم) الموجودة في شمال البلاد على

أحد فروع مصب الأمازون. حتى إذا وجدت الطائرة المفقودة نظم عملية الإنقاذ !!... أربعون طائرة طارت بعد ذلك فوق المنطقة الأمازونية تبحث... ولكن الطيارين يعرفون أنهم إنما يبحثون في «جهنم الخضراء» هم يسمونها كذلك. إنها محيط لا نهائي من الخضرة. من رؤوس الأشجار المتراصة المتشابهة لا يلتمع فيه إلَّا الأمازون وروافده الثلاثة آلاف. ولا بد من العمل السريع جداً. وإلا تعرض الناجون إلى ألف خطر وخطر هناك. أقل الأخطار أن تغطي الأعشاب والأشجار السريعة النمو، كنبت الشياطين، كل أثر للطائرة. فالأشجار هناك ترتفع أربعين وخمسين متراً ولا تترك أي منفذ للشمس إلى الأرض... بعد ثلاثة أيام من البحث جاءت من أحد الطيارين إشارة: كأني وجدت بقايا الطائرة. البقايا مبعثرة على الأشجار في نطاق واسع. هذا يعني أنها لم تهبط. ولم تصطدم بالغابة. ولكنها انفجرت في الجو. لا أمل في العثور على ركاب أحياء منها... كانت البقايا على بعد ١٢٠٠ كم من بلدة بيليم في منطقة من أعسر المناطق في الغابة العذراء...

الصحفيون حين تلقوا الخبر نسجوا حوله الأقاصيص كتبوا ما يحلو لهم. وخرجت كل جريدة برواية: بعضهم يؤكد أن الطائرة كانت تحمل شحنة هامة من الذهب!... أخرى تؤكد أنه كان عليها حقيبة من الماس ثمنها أكثر من ثلاثة ملايين كروزيرو. ثالثة تعلن أن في الطائرة يورانيوم. وبعض الصحف ذكرت أنها ضحية قنبلة شيوعية موقوتة!!... وجاءت بعثة من المظليين الأمريكيين على عجل ولكنهم امتنعوا عن الهبوط في الموقع. ليس ثمة من أحياء لإنقاذهم ولا حاجة للمغامرة من أجل دفن الموتى... فمن ذا الذي يستطيع إخراج المظليين بعد ذلك من الغابة؟

وقرر قائد حملة الإنقاذ (خوزيه كارلوس) إرسال طائرة مائية إلى أقرب موقع. ثم اختراق الغابة إلى مكان الحطام.

هنا جاء دور الاستغلال السياسي ودخل في القضية صاحبنا دي

باروس. كانت معركة رئاسة الجمهورية على الأبواب وكان الشعار الذي طرحه هو: البلاد بحاجة إلى مدير لأمورها. وهو هذا المدير...

وبينما كانت جموع من الغاضبين تهاجم مطار بيليم وتتهم خوزيه كارلوس بأنه قاتل، كان دي باروس يعقد مؤتمراً صحفياً في منزله الباذخ في سان باولو. ويؤكد ضرورة إنقاذ الأحياء في الغابة. ويوقع أمام الصحفيين عقد شراء طائرة هليكوبتر. واستئجار طائرتين صغيرتين. وإرسال حملة إنقاذ باسم: قافلة التضامن، على حسابه الخاص، لإنقاذ الأحياء... ولم ينس تزويدها برشاش وقنابل يدوية خوفاً من الهنود... وصفقت له كل البرازيل... إنها دعاية شعبية ضخمة...

وأضاف محدثي: كنت واحداً من الرجال الخمسة عشر الذين ذهبوا في تلك القافلة. يقودنا أحد رجال دي باروس الموثوقين. كنا ننتقل من بلد إلى بلد بالأناشيد والأعلام والخطب وشرب الأنخاب.

لكن طائرة الهيلوكبتر كانت مهترئة ولا منبسط للهبوط... ولم يكن لدينا من سبيل للنزول سوى القفز بالمظلات ونزلنا على بعد عدة كيلومترات من الحطام... مات واحد منا وجرح ثلاثة من الارتطام بالشجر فترك قائد القافلة خمسة منا لرعايتهم. وانطلق مع السبعة الباقين في الأرض المستنقعية. كان تقدمنا في الغابة مرعباً مرعباً. كان علينا أن نفتح بسكاكين الماشيت ما يشبه الأنفاق للمرور في قلب هذا الجدار المتماسك من النباتات الوحشية الكثيفة فيما نغوص حتى أواسطنا أحياناً في الوحول. في الليل كان الوهم يصور لنا عيوناً من آلاف الهنود ترمقنا. كنا بدون طعام كاف ولا ماء سوى وحل المطر... وعلى حافة الانفجار من التوتر والرعب. لأقل صوت نسمعه كنا نلقي قنبلة يدوية...

يوم وصلنا الحطام وجدنا الجثث بعضها متفحم. وبعض قد التهمه النمل المفترس!... ولكن كيف نعوم؟ الهليوكبتر التي جئنا بها معطلة وحاولنا

الاتصال بصاحبنا دي باروس ولكن عبثاً : لا رد من أي مكان ... ومضت أيام أحلى منها الموت ... وحين وصل (خوزيه كارلوس) إلى الموقع مع المدير الأمريكي لشركة الطيران ... وجدونا أشباحاً ممزقة الروح والأجسام والملابس . وحين أرادو العودة بطائرتهم قرر قائدنا احتجازهم ... نحن قبلكم في السفر !

واحتجزناهم يومين . من أيام الرعب والجوع ... حتى فرجت !...

وحين عدنا إلى سان باولو نسأل عن أديمار دي باروس الذي أرسلنا عرفنا أنه ، ونحن في الغابة ، قد يئس من معركة الرئاسة وفشلت محاولته الدعائية في وجود بعض الرجال الأحياء وإنقاذهم فسافر ... سافر بكل بساطة إلى أوربا !!...

لم يضف صاحب الحديث إلى حديثه سوى كلمة ...

ـــ قافلة الإنقاذ بقيت من مفاخر دي باروس السياسية ... أما نحن ؟ يا حسرتا على المنسيين !

سخر التاريخ

الآن ... وبعد حديثنا في المنسيين . في قبيل الزوايا المهملة . في الذين حاولوا الصعود إلى المسرح فدفعوا دفعاً إلى الكواليس . أو صعدوا فعلاً ولكن أحداً من الجمهور الإنساني لم يصفق لهم ، أو يأبه لأدوارهم . وانسحبوا على الصمت والقهر !...

ماذا نقول في التاريخ ؟

إنه سخر التاريخ !

أنا أدرس التاريخ وأدرِّسه منذ سنين وأصطبح كل فجر بحمورابي وميترنيخ . ويرقص عند رأسي حين أغفى حلقات من «لويسات فرنسا» وخلفاء بغداد . ودع عنك سيكمارنكن وهوهنزولرن . وتوت عنخ آمون ... ولكنني أعترف أخيراً ، بما اعترفت به مرات بيني وبين نفسي ، من أني لا أرى في التاريخ ، كل التاريخ ، أكثر من ملحمة سخر ! وبعض هذا السخر مر بطعم العلقم . وبعضه أحمر ينضح بالدماء (وإذا شاء أصحابي الإثنا عشر ، أعضاء عصبة الساخرين أن أرشح لهم عضواً آخر (يجعلهم ثلاثة عشر ...) فإني لا أجد من يليق بزمالتهم الساخرة مثل ذلك الشيخ المهترئ الطويل الذيل ، القصير النظر الثرثار اللسان : التاريخ !

بدأت ملحمة التاريخ الساخرة منذ نصب الإنسان نفسه محوراً للكون وقطباً لأحداثه ، فنظر إلى الدنيا جميعاً من خلال عينه . ولكن الإنسان ، هذا الكائن العاقل ـــ على ما يقولون ـــ لم يدع مكاناً في عقله ، وفي مفاهيمه للكائنات الأخرى . ولم يسائل نفسه : ترى أليس للعناكب ولأشجار السرو

ولتلك العليقات على ضفة الغدير من تاريخ؟ ترى لو قيض لها أن تكتب تاريخها ألم تكن تنصب نفسها هي أيضاً محوراً للكون، وقطباً لأحداثه. ومن يدري لعلها تهزأ أمام ذاتها من هذا الكائن الذي يبني لتعشش هي وتفرخ، والذي حرمه اللهالجذور ورطوبة الأرض ليشقى في النقلة على قائمتين؟

وقد كتب الإنسان بنفسه تاريخ نوعه. بيدنا نحن كتبنا ومحونا. ثم أعقب المحو كتابة. فمحو. فكتابة... فماذا كتبنا وقررنا؟ كأني أرى أنا نحتفظ من تاريخ جنسنا بالذي تحتفظ به العجوز من قصة جمالها الذاهب وصباها المرحوم! فنحن ندرس مآثر الإنسان ونقرر الإنسانية (هذا الإصطلاح المبهم المضلل). ونذكر الجهود الدامية التي قدمتها قطعان البشر قبلنا لتوفر لنا الرفاه المادي والسعادة الروحية...

ولكن كلا منا يعرف، في قرارة ذاته، أنه حين يذكر ماضيه القريب، فإنما يذكره من خلال الضباب. وأنه كثيراً ما يسبغ عليه أثواباً لم يلبسها، وألواناً مبهرجة لم تكن له!... ومع هذا فأنا نحن، أولاد آدم ذلك العاقل الأول، نقبل التاريخ على أنه حقائق مطمئنة ونعترف بهذا «الكذب الرسمي» وندعه يفرض نفسه على حاضرنا ومصائرنا...

ونحن نعتبر بعد أن التاريخ وحدة وأنه يمثل ماضي البشر المتصل. ونحاول أن نرى فيه سلسلة واحدة على طريقة هردر وهيغل، أو مؤامرة محبوكة، أو تناغماً متسقاً، وقدراً مقدوراً، يمضي لغاية، أو نرى فيه أخيراً دوائر إنسانية من الحضارة ـــ على حد قول اشبنغلر وتوينبي ـــ تولد وتنمو ثم تشيخ وتموت كما يستيقظ الربيع في النباتات، ثم ينضجها الصيف، ويذهب بها في النهاية صقيع كانون!... وأعترف أنني مع محاولاتي المتعددة لم أستطع أن أرى في مجرى التاريخ إلّا الحادث يعقب الحادث، والطارئ يتلو الطارئ «كما تدفع الموجة الموجة» ولم أستطع أن استخلص قاعدة لا تلعب بها مصادفة عربيدة أو تعميماً لا تعصف به طوارئ غير مرتقبة أو منظورة...

« فلو كان أنف كليوباترا أقل ضخامة لتغير ـــ حقاً ـــ وجه التاريخ » ولو لم يخطر لملك بروسيا أن ينسحب من معركة فالمي ، لخنقت الثورة الفرنسية في المهد . ولو نجح أحد خناجر الإسماعيلية في اختراق صدر صلاح الدين في الشرق فمن يستطيع أن يقدر كيف كانت تفتح القدس؟ ولو لم تكن عشيقة نلسون في نابولي فهل كانت وصلت الحملة الفرنسية إلى مصر ؟ وهل ظهر ذلك الألباني المغامر ـــ محمد علي باشا ـــ على عرش مصر ؟

ثم أنا اصطلحنا على أن نعتبر التقدم والرقي آيين الكون . ولكن من ذا الذي يستطيع أن يؤكد إنا في القمة ، أو على الأقل في الطريق إليها ، ونحن نشهد ، ملء التاريخ والماضي : جثث العقائد التي اعتبرها أصحابها نهائية فما خلدت ، وجيف الأحداث التي ظنها أبطالها باقية فذهبت معهم إلى القبور ؟

ونحن أيضاً وأيضاً نقسم التاريخ بين قديم ووسيط وحديث ... ونؤرخ الأحداث ونحددها بالسنين والأعوام والأيام ... ولكننا في نفس الوقت نفتش عن التأثير المتبادل ، وعن النظرات الشاملة ، وعن بقايا القديم في الحديث ... فيبدو كأن للتاريخ أحياناً مزاج مراقبي المدارس في التدقيق ، وتسامح راقصات الملهى في وقت معاً !

ونكتب أخيراً في الكتب قصص الشخصيات التاريخية ونحلل ونركب في أمرهم كما نشتهي من خلال أنفسنا ونجعل منهم أبطال الأحداث والرجال الذين يصنعونها وما تكلمت عن واحد منهم مرة إلّا تصورت نفسي في لحية (بابا نويل) أحمل في جعبتي لا الهدايا واللعب ولكن نماذج مختلفة من الألاعيب والمخارق بينها قزم بسيف من الخشب هو نابليون ومهرج بأنف مستعار هو يوليوس قيصر ، وهر دامي الشفاه هو جنكيز خان !

بلى ! هذه الملايين المركومة من الكتب التي تسجل ماضينا ليست أكثر من ملحمة ساخرة ! وإذا كان التاريخ صنو الحياة فإن سر سخره قد ينكشف حين ينكشف سر الحياة لأنا عند ذلك فقط نفهم هدفه ومعناه . على أني

أخشى إذ ذاك أن يتكشف هذا الذي حسبته سخراً ماكراً عن مأساة مرعبة .

واستعرض ، في لمحة عابرة ، أحاديث المنسيين في التاريخ ، فيهم من كان قبره صحراء من الثلج ، وفيهم من حاولوا الملك ففشلوا . ومن ماتوا آلافاً كالذباب دون سبب . ومن أعطوا ، أمام أنفسهم على الأقل ، معنى لحياتهم . ومن لم يكن لفجائعهم أي معنى . أستعرض الموكب فتأخذني ـــ ولو أبيت ـــ قشعريرة هي من الذعر والرهبة بين بين ... أيكون هذا كله ملحمة أخرى من السخر ؟ قد يكون . فإن المسافة بين الضائعين والباقين ، رغم بعد الشقة محدودة . الأمر بين المنسيين وبين رجال التاريخ الذين هم الرجال : « قريب حين تنظر من قريب » !

وإذا كان التاريخ صنو الحياة . فإن نهاية الحياة واحدة للجميع : الفناء في التراب . لتصبح النجوم والذر نسياً منسياً !

بوابة النسيان

هم رجال ثانويون ... بلى !

وليس لهم إلَّا بعض الأسطر في التاريخ ... بلى !

ويكادون يكونون مجهولين ... بلى !

ولكن نسيج التاريخ كله وبناءه إنما قام عليهم. لبنة لبنة. صفحاته كتبوها حرفاً حرفاً بأيديهم. هل نقول بأظافرهم وذوب الأضلاع؟ بلى! ومع ذلك فليس لهم ضجة نابليون في الزمان ولا سمعة الحجاج أو الرشيد في الكتب. ولا تألق المنصور أو عبد الرحمن الثالث أو الرشيد عند الأبصار. قاموا بأدوارهم كاملة ثم ... ذهبوا مع من ذهب! طواهم الأزل إلى الأبد، وإلى يوم يبعثون. ولقد يكون بعضهم في حياته شيئاً مذكوراً له طنين ورنين وتهليل. وتمشي السنابك في ركابه والأعلام وحملة الخيل ولكنهم ما إن غابوا حتى غابت مواكبهم كأنها ما ملأت الأرض غباراً ولا النجم ضججاً! ويصغرون على البعد ثم يصغرون حتى لا يكاد يكون لهم وجود. ولقد يحفظ التاريخ التفصيلي أسماء المحظوظين منهم ولكنه يبتلع كالثقوب السوداء في الفلك الأعلى أطياف هؤلاء الثانويين بالآلاف. بمئات الألوف. بل بالملايين وبمئات الملايين ويبتلع ما صنعوا وما ملكوا وأتلوا ... ثم يمسح شفتيه!

ومجازفة غير مأمونة أن نزعم التعرض لهؤلاء الذين صاروا ذرات ضائعة وهباء من الهباء في ماضي الإنسان أو لبعض منهم. أغمض عينيك وتذكر وأنت تبهت لما يهل في خاطرك من الأسماء والرجال، فيما حولك فقط يتراكض المئات من الذين يملأون الأخبار وتحليل الناس فكيف وأنت تتصدى لدينا

التاريخ وكونه الأوسع؟ حتى المختصون المختصون بالتاريخ قد يعرفون بعضهم ولكن تغيب عنهم وتختفي في الظلمة عشرات الملايين الآخرين بكل مكان وبكل زمان وبكل فج عميق!...

وتحار أنت ويحار دليلك لو شئت أن تلقى صنارتك في هذا المحيط المرعب وتلتقط بعض من تتحدث عنهم من هؤلاء. إنك إذن كما قال العالم فرنسيس باكون وهو يحتضر كمن يحاول أن يجمع المحيطات في صدفة! ولقد تختار فيقع في شبكة الصيد عندك المحار وسمكة القرش وبعض السمك والزواحف والحصى. ففي هؤلاء المنسيين من مضى كالماء لا لون ولا رائحة ولا طعم ومنهم أعداء أعداء كان وجودهم يعطي الصراع البشري مذاق الدماء والحقد الأسود وفيهم من زمرة قابيل وهابيل ومنهم من صدقوا ما عاهدوا الله عليه فقضوا نحبهم وما بدلوا تبديلاً... إن بوابة النسيان أوسع بكثير وبكثير جداً من بوابة التاريخ.

ولقد يظهر لك ظلم النسيان للتاريخ إذا كنت تعتقد، كما أعتقد، أن التاريخ لا يصنعه الأفراد ولكن تصنعه الجموع. وتصور عند ذلك أي المحيطات من الناس والأحداث أغرقها النسيان. وكم من القارات طوى ومن الجزر التاريخية أبقى... وإذا كان التاريخ ليس من صنع الأفراد الذين يسمونهم بالأبطال بل من صنع الكتل البشرية، تصوغه بأبطالها ومتسكعيها، وبذوي المواهب فيها وبالجموع السائبة كالقطعان، وبكبار الجزارين كجنكيز خان وصغار الحرفيين، وبمن لم يهجر لحظة مكتبه والكتاب، أو لم يترك على البسيطة خمشاً أو بمن تكسروا مع الأشرعة أو تهاوت تحتهم الخيل فالتاريخ عمل جماعي تتعاون فيه وتتصادم مختلف الفاعليات. والتاريخ الظاهر ما هو إلّا جزء ضئيل من حصيلة كل ذلك. أما بعض الاستقصاء فعنقاء سغرب: قال تعالى ﴿قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ولو جئنا بمثله مدداً﴾!

كلمة أخيرة

أن تلتقط نجمة إلى أخرى وأن تصنع من هذه النجوم عقداً وأن ترمي هذا العقد عند قدمي الحبيبة ... أليس هذا هو حلم جميع العاشقين ؟

هذا ما فعلته فبيني وبين التاريخ عهد قديم ما خفره مرة ولا خفرته . على أن بالعشق اللدود أشبه . فالتاريخ عندي هو قصة الإنسان في عواصفه ونبله وحقده الأسود وزلازله وأبعاد الشراع وعربدة الفكر . وهذه القصة تجري باسم الله مجراها ومرساها ... أما الناس فلا يرون منها إلّا ما يشتهون وما لعلهم وما شبه لهم في حين أن ما كمن من جمدية المحيط تحت الماء يزيد على تسعة أعشار ما ظهر فوق سطح الجلد ...

وهذه الأحاديث ما كتبت ونشرت لتزيد الناس علماً وجل « الذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم » بقدر ما أردت إلى أن تثير الأسئلة وإلى أن تطوف من حولك بإشارات الاستفهام تلك رسالتها . وأكون سعيداً لو أنك أقفلت الكتاب وقد ارتسمت بين عينيك والجبين إشارة استفهام واحدة تحضر التاريخ الذي تعرف كله . تهزه من الجذور وما وراء الجذور .

الفهرس

المنسيون في التاريخ/شاكر مصطفى .ـــ دمشق: دار طلاس، ١٩٩٦ .ـــ
١٤٤ص؛ ٢٠ سم .ـــ (سلسلة أوراق من التاريخ؛ ٧)

١ــ ٩٠٩ م ص ط ع ٢ ــ ٩٢٠ ع م ص ط م
٣ــ العنوان ٤ ــ مصطفى ٥ ــ السلسلة

مكتبة الأسد

رقم الإيداع ــ ١٦٠٠/١٠/١٩٩٥ رقم الاصدار ٦٨٧

رقم: ٢٥٠٧٩
تاريخ: ١٩٩٥/٢/١١